محمد ابراهيم مبروك

بين الإسلام وعلم النفس

كن قويًا بالإيمان

منهج اسلامي في بناء الشخصية القوية

دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت ٣٩١١٩٦١ ص . ب ١٦٣٦

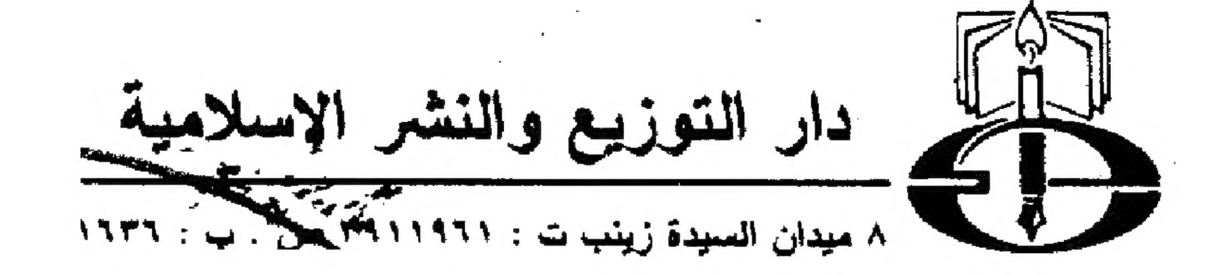
كن قوياً بالإيمان

منهج
إسلامى
فى بناء
الشخصية القوية

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣م

محمد مبروك

كن قوياً بالإيمان
منهج
إسلامى
فى بناء
الشخصية القوية



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراطٍ مستقيم ﴾

﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ﴾

الإهـــــــداء

إلى

أول إنسان قرأ لي في الوجود

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم شيئاً مما قضيت ويسلموا تسليماً .. »(النساء : ٦٥)

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسولة أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم .. » (الأحزاب : ٣٦)

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم .. » (الإسراء : ٩)

إن هذه الأيات تضعك بكل حسم أمام هذه الحقيقة أن الإيمان يرتبط وجوداً وعدماً بحقيقة تسليم الإنسان أو عدم تسليمه بأن ما يحدده التشريع المستمد من الله فى أى أمر من الامور هو الحقيقة الوحيدة التى يجب التسليم بها وأن ما دون ذلك من الأراء أو المعتقدات أو الفلسفات أو الشرائع أو العادات أو التقاليد ليس سوى باطل يجب الكفر به ، بل أن الإعتقاد بصحة أية شيء من ذلك هو نفى لإيمان الإنسان .

إن ما يقوله الله ورسوله هو الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال .

وما يريده الله ورسوله هو المعيار الوحيد للحكم على الأشياء . ولا قيد للإنسان فى هذا الوجود يستوجب قبوله إلا قيدا وضعه الله ولا حرام فى هذا الوجود على الإنسان أن يقف عنده إلا حراماً حرمه الله .

إننى دائما اتسائل :

إذا كان الله قد أحل شيئا ما فى هذا الوجود فمن ذا الذى يحق له تحريمه ؟ ....

كيف من الممكن أن تقول مثلاً :

أنه من الخطأ والعيب أن أفعل هذا لأن العرف والتقاليد يمنعانه بالرغم من أن الله قد أباحة . أى حكم هذا للعرف أو للتقاليد من الممكن أن يقدم على حكم الله ؟ .. وكيف من الممكن أن تعتقد بصحة تقديم حكم العرف والتقاليد على حكم الله وتعتقد أيضاً أنك تظل مع ذلك مسلماً ! ....

كيف من الممكن أن تقول مثلاً :

إن هذه الأفكار لم تعد صالحة للواقع الذى نعيشه والذى صارت فيه المصلحة أو المنفعة العملية هى المعيار الوحيد للحكم على الأشياء .. كيف من الممكن أن تعتقد بصحة تقديم هذا المعيار على المعانى المستمدة من القيم الإسلامية وتعتقد أيضاً إنك تظل مع ذلك مسلماً ؟ ...

كيف من الممكن أن تقول :

لقد أقامت اسرائيل ترسانات من القوة العسكرية أما أمريكا التى باتت تغزونا بنفسها ولا تكتفى بمساندة اسرائيل فقد ركع العالم أمامها وأمست هى القوة الوحيدة التى تحكم العالم . فأنّى لنا بمواجهة هذا .

هل من الممكن أن تقدم هذا المنطق على قوله تعالى : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . بدلاً من أن تأخذ بسنن الله فى الأرض وتعد لهم ما استطعت من القوة وتعتقد مع ذلك إنك ما تظل مسلماً ؟

كيف من الممكن أن تقول :

إن الواقع يفرض نفسه على كل الأشياء وأن الحقائق والمفاهيم قد أختلطت حتى فقد الناس القدرة على التمييز بينها ، بل أن الناس تحت ضغط الظروف الطاحنة لم يعد يهمهم فى شيء حق أو باطل وبات غاية ما يفكرون فيه هو امتلاكهم القدرة على أن يعيشوا أياً كان نوع هذه المعيشة وصارت الحياة كلها عبث فى عبث . كيف من الممكن أن تقول ذلك والله يقول :

« افحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم إلينا لا ترجعون » المؤمنون١١٥

وتعتقد إنك مع ذلك تظل مسلما ؟ ! ....

أمر لا فصال فيه فإما إنك تؤمن بالاسلام أو لا تؤمن . فإن كنت تؤمن بالاسلام فليس هناك أى مصدر آخر تتلقى منه تصوراتك وقيمك وقواعد سلوكك . وإما أنك لاتؤمن به فاختر المصدر الذى تتلقى منه هذه الأشياء من حيث تشاء فليس بيننا وبينك سبيل .

إن هذا الفصام النكد بين عقيدة المسلم وتصوراته وسلوكه ، هو الذى جعل من المسلمين كائنات هشة لاحول لها ولاقوة تتداعى عليها الامم كما تتداعى الأكلة الى قصعتها وبدلاً من الإعداد والتحدي والمواجهة ركنوا إلى الإستسلام لكل ما يصيبهم من الأمور كشياه تمضى إلى الذبح فى هدوء عجيب .

يقول الإمام حسن البنا[1] : « إن الأمة التى تحسن صناعة الموت وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة يهب لها الله الحياة العزيزة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة وما الوهن الذى أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت فاعدوا أنفسكم لعمل عظيم واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة »

إن الإسلام لا يتراجع أمام الواقع ولا يحجم عن اقتحامه والتفاعل معه ومن ثم استيعابه وإصلاحه وتقويمه فى صبر وأناة - بقيمه وحكمته ومنهاجه القويم - لكى يستنهضه ويرفعه ويسمو به إلى مثله العليا وغاياته المنشودة . هذه هى الواقعية التى نفهمها وليست الواقعية التى لا يفهمها سوى الضعفاء والإنهزاميون والتى لا تعنى سوى الإستسلام للأمر الواقع .

إنه المنهج الإسلامى الذى إذا أردنا أن نعبر عنه بصيغة فلسفية معاصرة نقول : « إنه المثالية الواقعية : المثالية التى تسمو بالانسان إلى رضى الله ورضوانه والواقعية التى تفرض عليه التعامل مع الواقع بموضوعيه كاملة » .[2]

وهذا الكتاب الذى نقدمة الآن يتناول أثر العقيدة الإسلامية على تصورات المسلم وقيمه وسلوكه فى الواقع المعاش والعمل على وضع منهج إسلامى لبناء الشخصية القوية من القيم الإيمانية لهذه العقيدة .

ولذلك فهذا الكتاب كتاب عقائدى فى الدرجة الأولى ولكنه لا يتناول العقائد الاسلامية من حيث كونها قواعد علمية يُراد دفع ما يتعلق بها من أوشاب جاهلية كما تفعل أغلب كتب العقائد . ولكن من حيث فعاليتها فى حياة المسلمين .

---

(١) مجموعة الرسائل - الجهاد - ص ٥٣

(٢) الإسلام النفعى للمؤلف . ص٥٣

لكن علماء النفس الغربيين يقولون لنا : عن أى شىء تتحدثون وأى بناء هذا الذى تريدون أن تقيموه فالانسان مجرد تركيب مادى عضوى وكل ما يتعلق بالافكار والسلوك هو مجرد ناتج كيماوى عن عمليات التفاعل بين الجزيئات الداخلة فى تركيب الإنسان فليس هناك شىء يسمى العقل أو حرية الأرادة بله أن يكون هناك شيئا يسمى الروح

كما أنه ليس هناك تعريف دقيق لما يسمى بشخصية الإنسان ولا توجد تلك التفرقة المشاعة بين الشخصية القوية والشخصية الضعيفة وإنما المعيار الوحيد للشخصية السوية أو غير السوية يدور حول مايتعلق بمدى تلائمها مع الوسط الاجتماعى الذى تعيش فيه . ولذلك فقد تعين علينا لكى نضع منهجا إيمانيا منطقيا لبناء الشخصية القوية أن نحدد قبل ذلك ماهى رؤيتنا الإسلامية لكل هذه الامور .

* ما هو التركيب العضوى للإنسان الذى يقوم بالوظائف السلوكية ؟
* أين العقل وأين الروح وما هى حقيقة النفس الإنسانية .. ؟
* ما هى المحددات الأساسية فى تركيب النفس الإنسانية .. ؟
* ما هى الكيفية التى تتحرك من خلالها سلوكيات الانسان .. ؟
* ما هو دور حرية الإرادة فى كل ذلك .. ؟
* ما هى الشخصية القوية ؟ وما هى الشخصية الضعيفة .. ؟

وتحديدنا لكل هذه الأمور إنما ينطلق من وعينا الإيمانى بها ، ذلك الوعى الذى يشتمل على الواقعية والعقلانية فى التفكير .

ولقد استلزم تحديدنا لهذه الأمور أن نتعرض بالنقاش لمنهج علمالنفس الغربى ولبعض نظرياته وعلى رأسها نظريات فرويد فى التحليل النفسى القائمة على أساس الجنس وذلك فى حدود القدر الذى يسمح به

موضوع الكتاب . وإن كانت هذه النظريات تستحق أن نفرد لها كتاباً خاصاً وذلك لما يروج لها العلمانيون من مصداقية زائفة تخدع الكثيرين .

* قد يقول بعض القراء الذين اطلعوا على كتبي السابقة : ها هو قد يجنح في مقدمته إلى حيث يميل في فكره إلى مناقشة الأفكار والفلسفات الغربية . ولكن أطمئنهم .. لن أجنح إلى ذلك في هذه المقدمة والموضوع الذي أقدمه في هذا الكتاب هو موضوع من أهم المحاور التي يدور عليها فكري كما أنه من أقربها إلى نفسي ويكفي أن أقول : أنني قد بدأت الكتابة في هذا الموضوع منذ أكثر من اثنتي عشرة سنه ثم على فترات مختلفة بعد ذلك ثم تكثف الأمر لدي في العامين الأخيرين بوجه خاص لأكمل ما قد بدأته منذ تلك المدة الطويلة .

ها أنا قد بلغ بي الجهد مبلغه ولم أقل كل الذي أريد أن أقول . ولكن الأمر الذي لا أستطيع أن أزهل عنه هو أن أقول لك :

أيها الإنسان .. أخرج من ذلك الوهم الكبير

وهم الإعتقاد بأن الشخص العاقل هو الشخص الذي يمشي على الطريق الذي يحدده له مجتمعه حتى ولو كانت القيم التي تسود ذلك المجتمع هي قيم الجهل والفساد فتستسلم بذلك لتلك القيود التي يقودك بها هذا المجتمع كشاة تمضي إلى مصيرها المحتوم : أي إلى الذبح .

لا ....

لابد أن تمزق تلك القيود التي ينسجون منها كفنك وتحطم تابوت وهمك

لابد أن نخرج من تابوت الخرافة التي أرادوا أن يسجنوك فيها لتمضِ في الطريق المستقيم الذي حدده الله للمجتمع الإسلامي المنشود وليس طريق الضلال الذي حددته أهواء البشر .

محمد مبروك

الوراق - ديسمبر ١٩٩٢

مدخل إلى عالم الكتاب :

أرض الصـــراع

أرض الصراع

ما الذي حدث ؟

ما الذي جعل الجنون أمراً طبيعيًا ؟! .

ما الذي جعل العار أمراً سائغًا ومقبولاً لا يثير استياء أحد ؟!

ما الذي جعل الضياع هو القاعدة التي يدعى الجميع أنه لا مفر منها ؟!

ما الذي جعل المنطق طريداً منبوذاً ومتهمًا بالجنون ؟!

ما الذي جعل الشرف محاصراً ومتهمًا ومطالبًا بالدفاع عن نفسه ؟!

ما الذي جعل الإصرار على المضي في الطريق المستقيم أمراً بعيد المنال يعلن الجميع عدم القدرة على تحمل مشاقه ؟!

ما الذي حدث ؟!

إن مجرد السقوط بدأ قديمًا ولكن السقوط الكبير بدأ من أعلى منذ أواسط السبعينات .

سقطت البلاد في ذل التبعية وانهيار القيم ، أُصِبنا بقوم تجتمع فيهم كل نقائص الدنيا ومع ذلك يرفعون فيها إلى أعلى عليين لا لشيء إلا لسبب واحد وهو أنهم امتلكوا المال .

من أين امتلكوا هذا المال ؟

ما القضية ؟! الكل يعلم أنه من الحرام ولكن قلة قليلة هي التي أصبح يهمها هذا الأمر . المهم إنهم امتلكوا الوسيلة التي جعلتهم يحصلون

على أشياء في الواقع يجزم العقلاء باستحالة تحقيقها بالنسبة إليهم حتى بعد أن يحصلوا عليها .

بينما يعجز الشرفاء عن تحقيق أبسط الاحتياجات الضرورية لهم .

لقد استطاعوا بذلك أن يرفعوا راية (لا إله إلا المال) بل استطاعوا أن يجعلوا من المال وثنًا يعبد من دون الله . وليست المسألة فقط عمل الإعلام الدءوب على اتساع فوهة أوعية المجتمع الاستهلاكية لكل المنتجات مهما كانت تفاهتها ، وإنما المشكلة الأكبر هي عملية الإغراء الملح لشراء أشياء ترفية يشعر أمامها الغالب الأعم من الشعب المصري المطحون بمدى تعاسة حياته ، ونفاذ صبره وعدم قدرته على الاستمرار في هذه الحياة ، أضف إلى ذلك ماتصاحبه الإعلانات من خلاعات وإغراءات جنسية ، يقوم بها فتيات رائعات الجمال قد تم اختيارهن بمهارة تجارية فائقة ، وبهذا يكتمل الحلم البراجماتي الشديد الإغراء الذي يقدمه الإعلان لمجتمعنا البسيط الضعيف التحمل لمثل هذه الإغراءات فالحلم البراجماتي الذي يقدمه الإعلان عبارة عن حياة غارقة في الترف والمتع والملذات التي لا يكاد يستطيع أن يحيا مثلها إلا الملوك والأمراء وأرباب النفوذ والمال.

والناس محاصرة داخل واقع اقتصادي طاحن يرتع فيه إعلام موجه يُروِّج لقيم أمريكية نفعية (براجماتية) غازية تجعل من المنافع المقياس الوحيد للحقائق وتجعل من المال الإله الوحيد الذي بيده حل كل مشاكل الحياة وتضفي عليه كل أثواب الفخر والعزة والكرامة والقوة والرفعة وتجعل من الفقر قرينًا للعار والانحطاط والوضاعة وكما جاء على لسان

أحد أبطال فيلم مصري (مفيش عار أكبر من الفقر) مفضلاً بذا يتهم بعار الطعن في شرف أخته عن أن يتهم بعار الفقر [1] .

لقد فقدت الحياة معانيها الجميلة وأصبح الضلال سيداً مهابًا يمضي مزهواً في الشوارع ويلقي من الناس الإجلال والتقدير والاحترام .

أيهما سيحترم وأيهما سيزدري ؟ شرف مع الفقر أم عار مع الغنى ؟..

إن الناس لن تهتم في الأمر إلا بالغني .. ولن تعد هناك أهمية بعد ذلك للتفرقة بين الأمرين : الشرف والعار !!!...

قيم تغفر لكل الأشياء مادامت تمر .

لتكن حياتك كلها تمثيلية مزيفة كبيرة .. ليكن واقعك كله كذب في كذب .

لتعش حياتك في ضياع كامل وتعي جيداً أن مالك حرام في حرام وأنك محاط بالعار من كل اتجاه وأنه لا استقرار لك وأنك قد فقدت الإحساس بكل متع الحياة بل وفقدت القدرة على أن تكون لك أي رغبة حيوية من رغبات الحياة وأنه لا مستقبل لك وأنك مهدد بالإنهيار التام في أية لحظة .

كل هذا ليس مهم .

لا تجهد نفسك في البحث عن أي حل ينقذك من هذا الضياع .

ولكن ابحث عن شيء واحد .

---

(١) حسين فهمي في فيلم « العار » .

ابحث عن أية وسيلة تبرر بها كذبك . ابحث عن أية وسيلة تستمد منها المزيد من الكذب والزيف الذين تستطيع بهما أن تتستر على واقعك وضياعك .

ابحث عن أية وسيلة تستطيع بها أن تكسب ولو القليل من الوقت الذي يؤجل وقوع انهيارك حتى ولو كان ثمن هذا التأجيل أن يكون الانهيار أكبر وأفدح ولا علاج له على الإطلاق .

افعل أي شيء ليس هذا هو المهم .

المهم شيء واحد هو أن تمر الأمور . هو ان (الحكاية تعدي) هو أن يكون هناك مبررات أية مبررات للاستسلام للضياع والانهيار .

هذه هي القيم النفعية (البراحماتية) الجديدة بعد تفاعلها مع واقعنا المصري .

لا حق ولا باطل ولكن المنفعة هي المعيار الوحيد لكل الأشياء .

المال هو الإله الوحيد .

الحفاظ على البرواز الاجتماعي هو أهم شئ في الحياة .

ليس من المهم إنقاذ الأمور ولكن المهم التبرير والتمرير ، ولكن المهم امتلاك القدرة على جعلها تمر والحكاية تعدي والاستعانة في سبيل ذلك بأكبر قدر من المبررات والكذب والزيف .

* * *

اختزال المفاهيم

لم تعد المفاهيم التي يعقلها الناس عن الأشياء كما كانت من قبل فقد أغارت البراجماتية على كل شئ وأعطته مفهومه النفعي الجديد واختزل الكمبيوتر البراجماتي القيم الأصيلة المستمدة من ديننا الحنيف إلى قيم جديدة تتوافق مع العبث البراجماتي وانتهازيته .

فالواقعية صارت تعني الاستسلام للأمر الواقع .

والحق والصدق صارا يعنيان التبرير والتمرير .

والإخلاص صار يعني قصد العبودية للمال لا غيره .

أما الكرم فهو قرض مؤقت مشروط بالسداد بأعلى الأرباح .

والتضحية صارت تعني البذل من أجل تحقيق أقصى المنافع .

أما الحب فهو جنس ولذة .

والصداقة شركة نفعية قابلة للتغيير والتبديل .

والأمان هو النوم على سرير من المال بأية طريقة .

والحكمة هي القدرة على تكديس الثروات واستغلالها .

والنجاح هو تحقيق أكبر رصيد متراكم من الأموال ، والشجاعة تهور، والثقافة جنون لا معنى له .

والإسلام هو كل ما لا يتعارض مع المصالح والمنافع .

إن لم يكن هو كل ما يساعد على تحقيقها .

والحياة كلها هي مجموعة من الرغبات المادية المفرغة من العواطف والشعور والأحاسيس الإنسانية .

أما الكذب فهو فن لا يتمتع به إلاّ الأذكياء .

والخيانة واقعية ، والنفاق لباقة .

والنصب والسرقة والرشوة والاختلاس والاستغلال شطارة ومهارة يستلزمها العصر .

والجبن حلم .

واحتقار الفقراء عصرية .

واستغلال أزمة المتأزمين ضرورة .

وهكذا اختزلت باقي القيم والمفاهيم .

هل الإسلام ضد المنفعة ؟

قد يصرخ فينا معترض فيقول : ما كل هذا الضجيج المفتعل حول المنفعة ؟ أليس من الطبيعي جداً أن يحرص كل إنسان على ما ينفعه ويسعى إليه ويدفع عن نفسه كل ما يضره ؟ وأليس الإسلام ذاته يحرضنا على أن يحرص كل منا على نفسه ؟ ومن الذي قال إن الإسلام ضد المنفعة ؟

إن الرد على كل هذه التساؤلات يتركز في أمر واحد هو : نعم إن الإسلام يوجهنا إلى نفع أنفسنا ولكن بأي مفهوم للمنفعة؟ إنها المنفعة التي يحددها لنا الإسلام ، فالنافع هو ما يحدده الإسلام أنه نافع . وليس ما يحدده أي تصور أو مذهب آخر .

فالشئ النافع لإنسان في الإسلام يكون محدداً بانطلاقه من التصور الإسلامي للوجود ومن الشرائع والقواعد التي وضعها الإسلام لاستخلاف الإنسان لله في الأرض وإعلاء عبوديته فيها والتي تعمل على تنظيم المنافع والمصالح بين البشر .

وبهذا فليست المنفعة في الإسلام يترك تحديدها لمذهب أو هيئة أو سلطة أو لرأي أي شخص من الأشخاص مهما كانت درجته من العلم أو الكفر ، كما أنه لا يترك تحديدها لكل إنسان على حدة كما يتهيأ لهواه فيترك الحبل على غاربه للصراعات والانتهازات .

فالحق في الإسلام هو الذي يحدد المنعفة والسعي إلى الحق هو غاية النفع ذاته تتحدد على أساسه باقي المنافع .

تدمير الإنسان

لقد حطم البراجماتيون كل أحلام الشباب وكل آمالهم بل وأبسط حقوقهم الشرعية ، وأحالوها إلى صراخ داخلي يظل يستنزف إرادة الإنسان وكبريائه حتى يسلبه صموده ليقف في النهاية يراقبهم في استسلام كامل بلا حياة بينما هم يستهلكون حياة البشر أمثاله ويصير أقصى أمل له هو أن يقبلوه كمجرد أداة بسيطة يضعونها حيث يشاءون، قد تكون هذه الأداة هي مجرد وقود لتشغيل ماكينات مصانعهم التي تنتج التفاهات ، أو قد تكون مجرد حلقة صغيرة في سلسلة أنشطتهم غير الشرعية التي تمتص دماء الملايين أمثاله أو قد تكون مجرد حافز منشط على الاستمتاع والتسلية .

إن الأمر يبدأ برغبة مشروعة جداً فيحدث الصدام فيحدث العجز فيحدث الإحباط فتحدث الكآبة فيحدث الركود المدمر لنفسية الشاب وبنيته الداخلية .

وكيف يكون موقف الإنسان عندما يرى أن كل هذه الأوضاع برغم بشاعتها هي التي تسود وإن كل النوايا النبيلة لا تكاد تصنع شيئًا وكيف لا يقف الضعفاء موقف العجز والاستسلام وهم يرون المبادئ والمثل والقيم العليا تهرس تحت عجلات النفعيين المادية التي تهزأ بالشرف والعقيدة ، ويرون النافع المتمثل في المال والثروة هو السيد القادر المطاع الذي له الرهبة والصولة والجاه والسلطان ، واحترام الناس وتوقيرهم وتقديرهم وانبهارهم ، بل وتقديسهم ، وله الحكمة القادرة على تنفيذ ما تقول وعلى النقيض من ذلك يرون الشرفاء يتآكلون تحت وطأة الفقر والقهر والاحتقار الناس لهم .

وكيف لا يقف الضعفاء موقف العجز وهم الذين لم يتحصنوا في يوم من الأيام بالعقيدة الراسخة والدين المتين والرؤية الإسلامية القوية لحقائق الوجود ، والاستعلاء على الماديات التافهة الفانية ، والشوق والحنين إلى الخلود .

كيف لا يقف الضعفاء موقف العجز وقد غُيِّب دينهم على امتداد التاريخ ولم يبق منه إلاَّ هامش سطحي مزيف لا يستطيع الصمود أمام قوى المفاهيم البراجماتية الزاحفة المنتصرة .

وكيف لا يقف الضعفاء موقف العجز وهم الذين كانوا ضحايا مطامع البراجماتيين الاستهلاكية البشعة للبشر وعجز كل المقولات المثالية غير الواقعية عن استنقاذهم من بين براثن هؤلاء البراجماتيين .

إنك حتى لو حاولت أن تثبت لهؤلاء صحة مفاهيم أخرى تختلف عن المفاهيم البراجماتية (أي النفعية) فلا بد أن تثبت لهم قدرة هذه المفاهيم على قهر المفاهيم البراجماتية عملياً وأن تثبت لهم جدواها المادية بالمقارنة بجدوى المفاهيم البراجماتية المادية أي إذا أردت أن تدعو هؤلاء إلى مفاهيم صحيحة ، فلا بد أن تثبت لهم أن هذه المفاهيم نافعة بالمفهوم المادي للمنفعة ، أي أن هؤلاء الضعفاء العاجزين هم أنفسهم قد تشكلت عقولهم بطريقة براجماتية (نفعية) وترسخت في نفوسهم نفس المفاهيم النفعية المنسلخة عن كل المبادئ والقيم الإنسانية .

لقد أدت البراجماتية إلى انسلاب الإنسان من كينونته الإنسانية وتفريغه من الحس والشعور والعواطف وكل ما يتعلق بكيانه كإنسان ويميزه عن الحيوان أو الجماد ، ثم تحوله إلى مجرد ترس جامد الشعور في ميكنة الحياة العصرية التي صممها البراجماتيون .

والنتيجة أن كل الأشياء تقع الآن ، حتى الإنسان فإن أجزاءه تتساقط جزءاً جزءاً والجزء الباقي يتجمد، يُفرَّغ من المشاعر والأحاسيس، يُفرَّغ من كينونته كإنسان ، ويصبح خامة صالحة للغاية للصب في القوالب الجاهزة التي يصممها النفعيون كآليات صغيرة في ماكينة الحياة النفعية .

* * *

قد لا يكون الإنسان في الأصل ماديًا ولكنه قد يسقط فريسة في أنياب الماديين التي لا ترحم ، وعندما يجد نفسه كذلك .. عندما يجد الآخرين لا ينظرون إليه إلا على أنه سلعة ويُلقي كل شعور أو إحساس لديه في محرقة أطماع الآخرين فيه .. عند ذلك ما الذي من الممكن أن يعينه لديه أي شيء من القيم إذا كانت حقيقة ذاته نفسها أُختزِلت إلى قيمة مادية فهل هناك شيء في العالم يمثل لديه أية قيمة بعدها ؟

نعم لن تبقى لديه قيمة لشيء في الوجود إلا القيمة المادية . ليس هذا بناء على طمع لديه ولكنه يمثل لديه حقيقة واقعية منطقية فرضتها عليه تجربته القاسية .. إذن فلا غرابة عند ذلك إذا صارت الضحية ذئبًا تعامل الآخرين بنفس المنطق المادي الذي فرض عليها .

أنا لا ألتمس هنا للضحية عذراً فـ « كل نفس بما كسبت رهينة » ولا عذر لأحد غير عديم الإرادة ولكني التمس تفسيراً لما يحدث ولكي يكتمل هذا التفسير أقول إن هذا الإنسلاخ الذي حدث للضحية حتى تصير ذئبًا لا يكون إلا بالنسبة للأشخاص الضعيفة المستسلمة التي إذا دفعتها الظروف إلى الانزلاق في هاوية فإنها تستسلم لها تمامًا دون أن تحاول مقاومة هذا الانزلاق والوقوف بكل استماتة عند نقطة معينة فيها تحاول أن تبدأ منها الخروج من تلك الورطة التي دفعتها الظروف إليها . أقول تستسلم لها تمامًا حتى تصل إلى القاع الحتمي في النهاية .. قاع الإنسلاخ من عالم القيم إلى عالم المادة والأرقام بكل قسوته وصرامته وجفائه البشع .

أي أن الذي أريد أن أقوله هنا أن جريمة الإنسان الأساسية الذي سقط فريسة للآخرين ليس في كونه قد تحول إلى ذئب ولكن جريمته الأساسية في ضعفه واستسلامه للآخرين يفعلون به ما يشاءون ويختزلون عقله ووجوده إلى وعي معين يخدم أهدافهم .

وهل الضعف والاستسلام جريمة ؟

هل الضعف والاستسلام شيئًا إراديًا نحاسب عليه ؟

أقول نعم .

الضعف والاستسلام جريمة يجب أن نُحاسب عليها لأن الضعف والاستسلام يعبران عن الخواء الداخلي للإنسان يعبران عن فقدان الإنسان لركائز القوة الحقيقية وتهاونه في عدم العمل عل إقامة دعائمها في نفسه .

وما هي هذه الركائز إلا ركائز الإيمان أي أن ضعف الإنسان الشخصي هو تجسيد لحقيقة ضعف إيمانه الداخلي فإذا استسلم الإنسان للأمور وإذا تمادى في سقوطه إلى النهاية حتى ولو كانت الظروف قد أرغمته على السقوط في بداية الأمر فإن ذلك دليلاً على ضعف إيمانه ولذلك فهو مسئول عن ذلك الضعف والاستسلام والتمادي في السقوط .

قالت فتاة أمامي :

لا أعرف إذا لبست فستانًا جميلاً ما قيمة كل الفساتين الأخرى كي أضعف أمامها . لا أعرف إذا أكلت طعامًا شهيًا ما قيمة كل طعام العالم بعد ذلك كي أضعف أمامه .

إن ما قالته صادق تمامًا ويمكن أن يقاس عليه كل الأمثلة الأخرى التي تشبهه .

فإذا كنت أسكن بيتًا كريمًا فما قيمة كل قصور العالم كي أضحي بذاتي من أجلها ؟!...

وإذا كنت أركب سيارة صالحة فما قيمة أفخم ناقلات العالم كي أضحي بذاتي من أجلها ؟!...

وهكذا .. وهكذا ..

نعم إن هذا الموقف صادق تمامًا وحقيقي إلى أقصى حد ولكن هذا الموقف يتناول مستوى معين للقضية المطروحة دون المستويات الأخرى إنه يتناول موضوع الإغراء المادي من حيث كونه متعة يتمتع بها الإنسان ولكن هناك مستوى آخر للقضية أخطر كثيراً من هذا المستوى يتعلق بما تمثله هذه المادة من عون على الاستعلاء .. على الاستكبار في الأرض وذلك لقدرتها الخارقة في التأثير على الآخرين خصوصًا عندما تمثل ترمومتراً اجتماعيًا لتقدير قيمة الإنسان في مجتمعات مثل مجتمعاتنا الساقطة في هوة سيادة المفاهيم النفعية (البراجماتية) .

أقول : عند هذا المستوى الخطير يكون ابتغاء المال ليس في الحقيقة ابتغاء للمتعة في الأساس ولكن ابتغاء للعلو في الأرض ابتغاء لإرضاء رغبة الإنسان في العلو والسيادة على الآخرين ابتغاء في امتلاك مسوغات التكبر في الأرض .

هذه هي حقيقة القضية التي يضحي الإنسان بذاته من أجلها .

ما هذا المنطق ؟!

أيضحي الإنسان بذاته من أجل إرضاء ذاته في التكبر ؟!

أقـول : ليس هناك تناقض في ذلك . هو يضـحي بما هو حـقـيـقي وسامي ورباني في ذاته من أجل ما هو أناني وشيطاني فيها وهو رغبتها في التكبر والإستعلاء على الآخرين .

نعم إنه ..

الجريمة الأولى والكبرى في هذا الوجود والتي لم يعد أحد يتعرض لها ـ في غير النادر ـ إلا كموضوع تقليدي لا يحتاج إلى عظيم اهتمام أو شرح .

* * *

القسم الأول

حقيقة النفس الإنسانية

أولا : بين الإسلام وعلم النفس

بسم الله الرحمن الرحيم

بين الإسلام وعلم النفس

جاء القرن التاسع عشر كمخاض تفجر عن حركات التمرد الفكرى والثورى على أفكار الكنيسة واستبدادها على امتداد القرون السابقة منذ عصر النهضة فكان التطرف فى النزعة المادية لدى مفكرى هذا القرن يمثل رد فعل طبيعى للتطرف فى النزعة الغيبية الذى كانت تتجه اليه الكنيسة[1] واصبحت الحتميات التى تطلقها النزعة المادية هى البديل الوحيد الذى تقدمه فى مواجهة الحتميات الكنيسية الثائرة عليها وقد بلغ هذا التطرف مداه فى النظر الى الانسان ذاته على انه مجرد تركيب كيميائى وفيزيائى تحكمه نفس القوانين الطبيعية التى تحكم الاشياء الطبيعية وبذلك يكون سلوكه هو مجرد تعبير عن التفاعلات الكميائية بين الجزيئات المادية التى يتكون منها الى الدرجة التى جعلت عالم الاحياء ذو النزعة المادية المتطرفة هكسلى يقول :

« أن الافكار التى اعبر عنها بالنطق وافكارك فيما يتعلق بها انما هى عبارة عن تفاعلات جزئية »[2] أى أنها مجرد ناتج عن التفاعلات الكيميائية بين الجزيئات المادية التى يتكون منها الانسان .

وعلى ذلك فالسلوك الانسانى هو مجرد تعبير عن التفاعلات الكيميائية داخل الانسان ولذلك فهو لا يستطيع ان يختار بحرية لأن

---

(١) يعترف رجل الدين والفيلسوف الوجودى كير كجارد أنه لايستطيع المسيحى أن يعتمد فى إيمانه على العقل للتنافض الواضح بينه وبين مقولات الكتاب المقدس راجع فى ذلك : أ.م بولنيشفسكى فى كتابه الفلسفة الأوربية المعاصرة (عالم المعرفة)

(٢) نقلا عن كتاب العلم فى منظور الجديد لروبرت ت م . أغروس وجورج ن . ستانسيو : ص ٢٥

هذه التفاعلات تحكمها قوانين طبيعية تجعل الأفكار تتحرك بشكل ميكانيكى لامجال للإرادة فيه .

ولما كان علم النفس الغربى اراد أن يلحق نفسه بكافة العلوم الطبيعية ويباهى مثلها بالحتمية العلمية لمقولاته فقد عمل على تطبيق مناهج البحث التجريبى على النفس الانسانية مساوياً بينها بذلك وبين المواد الطبيعية التى تطبق عليها هذه المناهج .

وهذا هو الموقف الذى اتخذه فرويد نفسه فقد ذهب إلى أن المحللين النفسيين « هم فى صميمهم أنصار للآلية والمادية شديدو العناد »[١]

أما عالم النفس جون ب . واتسن صاحب المذهب السلوكى فإنه يصرح بحماسة شديدة أن : « الحقيقة العارية هى أنك كعالم نفسى لابد لك فى هذه الحالة إذا أردت أن تظل علمى المنهج أن تصف سلوك الإنسان بعبارات لا تختلف عن تلك التى تستخدمها فى وصفك لسلوك الثور الذى تنحره »[٢]

ويذهب عالم النفس جوليان روتر إلى أن « معظم السيكلوچيين (أى علماء النفس) يقتربون من مشكلة فهم الطبيعة الانسانية من وجهة النظر العلمية فهم يرون أن سلوك الإنسان تحدده قوانين طبيعية يمكن إكتشافها »[٣] .

---

(١) نقلا عن المرجع السابق : ص ٨١

(٢) نقلا عن المرجع السابق : ص ٨٥

(٣) علم النفس الإكلينيكى : ص ٣٥

وعلى ذلك نستطيع أن نبلور اعتراضنا على علم النفس الغربى فى الأتى :

* النظر إلى الإنسان على أنه مجرد تركيب مادى مثله فى ذلك مثل المواد الطبيعية مما يعنى نفيه للعقل والروح وكل ما هو إنسانى .

* النظر إلى السلوك الإنسانى على أنه مجردتعبير عن التفاعلات الكيميائية داخل الإنسان تحكمها قوانين حتمية أو على الأكثر مجرد حيوان كالثور تحكمة الغريزة مما يعنى نفية لحرية الإرادة والإعتراض الثانى مبنى على الإعتراض الأول .

* وفهم هذا السلوك الإنسانى ومعالجة مشاكله من خلال مناهج البحث التجريبى والمعامل والعينات مما يعنى نفى العلاقة بين هذا السلوك وبين التجارب الإجتماعية الخاصة التى يمر بها الإنسان

ونقطة ارتكازنا فى هذا الأمر هو أنه ليس هناك أدلة علمية حقيقية يستند عليها أصحاب هذه النظريات وإنما المسأله مجرد أدعاء إعتاد أصحاب العقلية العلمانية المادية التلويح به فى كل ما يذهبون إليه من نظريات فى العلوم الانسانية والتى هى فى حقيقتها ليست أكثر من اراء فلسفية تحتمل الصح والخطأ وكون الأراء الفلسفية تحتمل الصح والخطأ هو أمر يمثل إحدى المسلمات العقلية التى يتفق عليها البشر .

فأراء فرويد مثلاً لم تلق تأييداً علمياً ذو شأن بل قوبلت بهجوم شديد من العلماء والأطباء والفلاسفة بل وانفصل عنه عناصر من أهم تلامذته كيونج وأدلر وأقاموا مذاهب أخرى تخالفه كما سنبين فيما بعد .

أما واتسن (صاحب مذهب السلوكية) فنظراً لما تعرضت له أراءه من نقد ولأسباب أخرى « اعتزل المجتمع الأكاديمى (العلمى)

نهائياً فى عام ١٩٢١ وأخذ يشتغل بمهنة تجارية فى الميدان الإعلانى » [(١)]

يقول الأستاذ عادل حسين : « إن البعض ينتقد منهج المدرسة السلوكية فى علم النفس التى تعامل الإنسان وكأنه مجرد حيوان ونحن نتفق مع هؤلاء فى هذا النقد ولكن يبدو أن بعضنا يصل إلى أبعد من ذلك فلا يلمح الفارق بين الإنسان وثانى أكسيد الكربون وما اشبه » [(٢)]

ويذهب العالم النفسى فرانك ت . سفرين : « إلى أن النظريات السلوكية للعلوم ترتكز إلى حد بعيد على نظريات القرن التاسع عشر التى لم تعد تعتبر صحيحة . ومن شأن علماء النفس أن يتمكنوا بإدماجهم الجديد مما اكتنهه (فَهِمَ أسرارُه) الفيزيائيون (علماء الفيزياء) والفلاسفة من وضع منهجيات تكون اكثر انسجاماً مع موضوع بحثهم الفريد من نوعه » [(٣)]

وما يقوله سفرين يمثل الإتجاه الجديد السائد فى علم النفس الذى أراد أن يتوافق مع النظريات العلمية الجديدة فى الفيزياء والفسيولچيا (علم وظائف الأعضاء) ولذلك فالعالم النفسى كارل روجرز يردد الرأى نفسه فيقول [(٤)] : « لقد سعى علم النفس فى محاولة منه للمغالاة فى منهجه العلمى إلى اقتفاء أثر فيزياء نيوتن وقد أعرب أو بنها يمر (أحد العلماء) عن أفكاره بقوة حول الموضوع قائلاً :

---

(١) العلم فى منظوره الجديد : ص ٨٥

(٢) نحو فكر عربى جديد : ص ١٤ ، ١٥

(٣) نقلا عن العلم فيمنظوره الجديد : ص ٨٧

(٤) نقلا عن المرجع السابق : ص ٨٧

« إن أسوأ ما يمكن تصوره هو أن يتأثر علم النفس تأثيراً يجعله يصوغ نفسه على غرار فيزياء لم يعد لها وجود فيزياء عفى عليها الزمن واعتقد أن هناك إجتماعاً فى الرأى على أن هذا هو الطريق الذى قادتنا إليه السلوكية الوضعيه المنطقية » .

وها هو أحد علماء النفس العصريين (هـ . ج أيريك) يكشف عن هذه الحقيقة « ان معدل شفاء العصابين (المرضى بمرض عصابى) ثابت فعلياً سواء عولجوا بأساليب العلاج النفسى المعروفة أو تركوا بدون علاج » (١)

ويفسر لنا الدكتور حسن الشرقاوى سبب ذلك فيقول(٢) : « أما استخدام مناهج علم النفس التجريبى فى دراسة الشخصية الانسانية ، فهو جهد ضائع وأسلوب عاجز ناتج عن معرفة قاصرة ، حيث أن هذه الدراسة كما سبق القول تتبع أسلوب التحليل والتجريب لأجزاء من الشخصية وذلك بتفكيكها إلى عناصر لتصبح سهلة طيعة حتى يمكن اخضاعها إلى الدراسات العلمية والابحاث المعملية .. وهذا لا يمكن تصورة فى دراسة النفس الانسانية ..

والحق أن هذه الحصيلة من الدراسات المتناقضة ، قد أضرت فى دراسة الشخصية أكثر مما أفادت فنظريات الشخصية لم توصلنا الى فهم دقيق للسلوك البشرى ، بل على العكس أضافت صعوبات جديدة فى فهم الشخصية اذ أنها وضعت افتراضات متخيلة ، جعلت تفسيرنا للشخصية أكثر ابهاما وغموضاً ، بل وجعلت فهمنا لها أكثر استغلاقا ، مما كان قبل نشأة التحليل النفسى بمدارسه ومناهجه المختلفة ...

---

(١) نقلاً عن د . حسن محمد الشرقاوى (نحو علم نفس إسلامى) ص : ٨

(٢) نحو علم نفس إسلامى .

أن المناهج المستخدمة - حاليا - فى العلاج تعتمد على وصف وتشخيص السلوك الانسانى المرضى باعتباره حقيقة من حقائق الشخصية الانسانية ، وهذه المناهج تزعم فى جملتها أن العدوان والشهوة واللذة ، منابع أصيلة للسلوك ، وأن أمثال عقدة أوديب وعقدة الكترا ، مراجع رئيسية تكمن فيها جميع أنواع التصرفات .. كما نجد ذلك عند أصحاب التحليل النفسى وعلم النفس الفرضى ونظرية التعلم ، وجميع هذه النظريات تدين بوجودها الى معامل الحيوان !! وشتان ما بين الانسان والحيوان .. » .

وإذا كنا نقول أن نظريتنا الإسلامية تقوم على إمتلاك الإنسان لحرية الاختيار فلسنا وحدنا الذين نقول ذلك بل أن هذا هو الإتجاه الجديد لعلم النفس .

* يقول روبرت م . أغروس وجوج ن . ستانسيو مؤلفا كتاب (العلم فى منظوره الجديد) : « إذا كان الإنسان يملك حرية الإختيار فلا داعى إذ ذاك إلى قصر كل السلوك الإنسانى على آليات غريزية أدنى من مستوى البشر ولاحاجة إلى أن يفترض أن الدوافع الواعية للإنسان المعافى ليست هى الأسباب الحقيقية لتصرفاته . وهذا ما يحذر منه العالم النفسى فكتور فرانكل بقوله : « إن كشف الأقنعة عملية مشروعة تماما ، غير أنى أرى أن الواجب يقضى بالتوقف عن ذلك حالما يواجه المرء ما هو أصيل الصدق - ما هو إنسانى حقا - فى الإنسان . فإذا لم تتوقف العملية عند هذا الحد فالشىء الوحيد الذى يكشف عنه (العالم النفسى الكاشف) فعلا هو دافعة الخفى وأعنى به حاجته اللاواعية إلى الحط والانتقاص من إنسانية الإنسان . » [أى أنه لو لم يتعامل العالم المعالج

مع الإنسان على أنه إنسان فهو كأنما يحركه شيء خفى داخله - مرتبط بالحالة النفسية للعالم نفسه - يحقر من قيمة الإنسان }

ويقول العالم النفسى رولو ماى « إذا كنا عازمين على أن ندرس الإنسان ونفهمه فنحن بحاجة إلى نموذج إنسانى . وقد يبدو هذا أمرا بديهيا ، بل ينبغى أن يكون كذلك . غير أن المدهش فى الأمر هو أنه ليس كذلك على الإطلاق . فأنا فى عجب متواصل للدهشة التى يعرب عنها زملاؤنا العلماء فى بعض حقول المعرفة الأخرى كالفيزياء وعلم الأحياء حين يكتشفون أننا نأخذ نماذجنا لا من علومهم فحسب ، بل فى أحيان كثيرة من أشكال بالية من علومهم كانوا هم أنفسهم قد نبذوها »

والشكل البالى من العلم الذى يشير إليه العالم ماى هو آلية النظرة القديمة وماديتها فالإنسان يملك القدرة على التصرف من أجل تحقيق أهداف ينتقيها هو نفسه . غير أن الأهداف تستند إلى قيم . وعلى ذلك فإن علم النفس فى النظرة الجديدة يشمل دراسة القيم . ويوضح روجرز أن علم النفس الجديد يشمل ثروات الفرد الروحية والعقلية فيقول : « فى هذا العالم من المعانى الروحية والعقلية ما يستطيع هذا العلم أن يبحث جميع المسائل التى ليس لها معنى لدى السلوكى : الغايات ، والاهداف ، والقيم ، والاختيار ، وفهم الذات ، وفهم الاخرين ،والتصورات الشخصية التى نبنى بها عالمنا ، والمسئوليات التى نقبلها أو نرفضها وكل عالم الفرد المدرك بالحواس بنسيجة الضام للمعنى » .

لقد صارت هذه النظريات المادية فى علم النفس مفاهيم بالية هناك ولكن مازال العلمانيون هنا يريدون فرضها علينا على أنها مسلمات علمية لاتقبل الجدل والنقاش .

الأجهزة العصبية في الإنسان وعلاقتها بالسلوك الإنساني [1]

يتكون الجهاز العصبي في الإنسان من جهازين رئيسيين :

* الجهاز المخي الشوكي .
* والجهاز العصبي المستقل .

١ - الجهاز المخي الشوكي

ويتكون من كتلة من الأنسجة العصبية في الرأس وفي العمود الفقري . وأجزاؤه هي المخ ، والمخيخ ، والنخاع المستطيل ، والنخاع الشوكي . ويطلق على هذا الجهاز « الجهاز العصبي المركزي » وتتصل به المسالك العصبية التي تذهب إلى كل أجزاء الجسم . وعلى الرغم من أن هذا الجهاز يعمل كوحدة متكاملة فإن لكل جزء فيه وظيفة خاصة يقوم بها .

فالنخاع الشوكي هو حلقة الاتصال بين الأعصاب الموردة والأعصاب المصدرة في الإحساسات البسيطة التي في نطاق الأجزاء السفلى من الجسم . بالإضافة إلى ذلك فإنه يحمل التيارات العصبية إلى اللحاء كما يحمل الردود من اللحاء ويوصلها إلى الخارج في العضلات والغدد .

---

(١) يراجع في هذا الموضوع المراجع الآتية :
١ ـ المرجع في علم النفس : د. سعد جلال .
٢ ـ الشخصية : لازلدوس .
٣ ـ ميادين علم النفس : مترجم عن علماء غربيين .
٤ ـ الطب النفسي والمرض العضوي (مقال) : د. مصطفى زيور .

ويعمل النخاع المستطيل كحلقة وصل تسبطر على العمليات الحيوية بالتنفس ، وما يقوم به القلب من وظائف ، وضغط الدم ، والهضم بالإضافة إلى أنه حلقة وصل بين النخاع الشوكي واللحاء باعتباره إمتداداً للجزء الأعلى من النخاع الشوكي عند مدخل الجمجمة .

أما المخيخ فيقع في الجزء الخلفي من الرأس ويمتد تحت اللحاء بعض الشئ . ويلعب دوراً هامًا في إيجاد التوافق بين نشاط العضلات وحفظ التوازن . وقد لوحظ أن استئصال أجزاء منه أو استئصاله كله في الحيوانات يؤدي إلى فقدانها السيطرة على تنسيق حركاتها في المشي أو الجري .

أما اللحاء فهو أكبر قسم في هذا الجهاز وأكثرها تعقيداً . وهو يتكون من نصفين الأيمن منهما ويسيطر على القسم الأيسر من الجسم ، والأيسر ويسيطر على القسم الأيمن من الجسم . وإذا أخذ قطاع منه نجد أنه يتكون من طبقة خارجية رمادية اللون تسمى بالقشرة ، تليها كتلة من الأنسجة التي تبدو كمادة بيضاء .

٢ - الجهاز العصبي المستقل

أما الجهاز العصبي المركزي فيتكون من قسمين أو جهازين هما السمبثاوي والباراسمبثاوي . وهما يتحكمان في العمليات الضرورية للحياة كالتنفس . والدورة الدموية ، والهضم وما إليها . وهما بذلك يتحكمان في غدد العرق ، والشعر، والمناطق الخارجية للأوعية الدموية ، كما أنهما يتصلان بالقلب والرئتين والجهاز الهضمي ، والجهاز التناسلي ، والأعضاء الإخراجية وغير ذلك من الأحشاء الداخلية .

ولكل من السمبثاوي والباراسمبثاوي وظيفته التي تعارض وظيفة الآخر فوظيفة السمبثاوي زيادة نشاط القلب وسرعة دقاته كما يحدث في حالتي الخوف والغضب ، كذلك تضييق الأوعية الدموية ، وتضييق حدقة العين ، ووقوف الشعر ، وشل حركة الهضم ، وإيقاف إفراز غدد الهضم . وإرخاء العضلات القابضة مما يؤدي إلى فقد السيطرة على البول والبراز أثناء الانفعال . وبالجملة فإن النغمة العامة التي تسود عمل هذا الجهاز نغمة ترتبط بعدم الراحة والتوتر .

أما الباراسمبثاوي فعمله مضاد لعمل السمبثاوي ، فكلاهما يشل حركة الآخر أثناء قيامه بوظيفته . وإذا كانت النغمة التي تسود وظيفة السمبثاوي غير سارة فالعكس صحيح بالنسبة لوظيفة الباراسمبثاوي . إذ تتصل وظيفته بالجوع والعملية الجنسية والعمليات الإخراجية ، وكلها عمليات في إشباعها لذة تبعث على الراحة ، ويسيطر عليها هذا الجهاز. فوظيفته هي التهدئة .

وتتوقف أهمية الغدد بنوعيها على الأثر الذي تحدثه إفرازتها في العمليات الجسمانية الأخرى . فهي تؤثر في عمليات الهضم والتنفس ونشاط القلب ودورة الدم والنشاط الجنسي وما إليها .

ويهمنا أن نتعرف على وظيفة الغدد الصماء لما ظهر من أهميتها في التأثير على مدى تفاعل الإنسان مع بيئته وتكيفه معها وتكوين شخصيته . فهرموناتها تسير في الدم إلي كل أنحاء الجسم . لهذا فهي تقوم بعملية تنسيق وظائف الغدد والعضلات . وتسمى هذه الوظيفة بوظيفة التكامل الكيمائي .

كما أنها تساعد في النمو الجسماني والعقلي وفي الانفعالات وعمليات الهضم وعمليات الهدم والبناء في الجسم .

وقد ظهر أثر هذه الغدد بعد العمليات الجراحية التي أدت إلى استئصالها . فإذا إستئصلت غدة ظهرت أعراض معينة كانت تزول إذا تناول الفرد جرعات من هرموناتها . كما تبين أنه إذا زادت إفرازات بعضها زيادة كبيرة أو نقصت نقصًا كبيراً أدت إلى اختلال في التوازن الغددي وبالتالي إلى أعراض جسمانية ونفسية معينة .

وأهم الغدد الصماء الغدة النخامية ، والغدة الدرقية وجاراتها ، والغدة الكلوية أو فوق الكلوية ، والغدة التناسلية ، والغدة الصنوبرية والغدة التيموسية ، وجزر لانجز هانز بالبنكرياس .

وتصبح فاعلية الهرمونات الصماء من أجل التأثير على السلوك والوظائف التكيفية أكثر وضوحًا عندما يكون هناك مرض أو نقص في إفرازات إحدى الغدد . وتتضمن الأمثلة البارزة تأثيرات هرمون « الدرقية » عندما يكون بالغ القلة أو بالغ الزيادة . فكثرة هذا الهرمون تؤدي ـ من الناحية السلوكية ـ إلى أشياء كثيرة من بينها الاهتياج وقلة النوم ، بينما يؤدي قلة إفرازها إلى حدوث النوم والتعب . وهذه الآثار تكاد تكون معروفة للرجل العادي ، لأن كثيراً من الناس يتعاطون حبوبًا للتغلب على نقص الدرقية . وثمة مثال آخر بارز يشمل البنكرياس الذي تفرز أجزاء منه (مجموعة الخلايا الصغيرة) هرمونًا قويًا يعرف «بالأنسولين» . والأنسولين ينظم مقدار السكر في مجرى الدم ، ومفعوله

هو سحب السكر من الدم واختزانه في الكبد . وهذا هام لأن عمل عضلات الجسم ، وبالطبع خلايا المخ ، يتوقف على أكسدة السكر . فإذا كان هناك مقدار قليل جداً من السكر ، فإن التفكير والعمل التكيفيين لا يمكن أن يحدثا ، وإذا كان هناك مقدار كبير جداً من السكر فإن الشخص يعاني من الإصابة بمرض السكر . وعلى ذلك ، فكمية الأنسولين التي يفرزها البنكرياس يجب أن تكون كافية للاحتفاظ بمستوى السكر في الدم من أن يرتفع ، وعلاوة على ذلك تزودنا بالقدر الكافي الذي يسمح للمخ والعضلات أن يؤدي وظائفها بنجاح .

وأحيانًا يعاني فرد ما من اضطراب الأنسولين ، وتكشف الأعراض عن الدور الحيوي الأساسي للهرمونات في الوظائف السيكولوچية . وأحد هذه الاضطرابات مثلاً هو وجود ورم في البنكرياس يفرز الأنسولين . وفي مثل هذه الظروف يستمر إفراز الأنسولين في مجرى الدم بصرف النظر عن مستوى السكر في الدم . وفي مثل هذه الحالة أيضًا يُحدث السحب الزائد للسكر من دم وخلايا المخ أعراضًا خطيرة كالضعف الجسمي ، والخلط الذهني ، والرؤية المزدوجة ، وحتى حدوث النوبات أو التشنجات . والشخص الذي تنتابه هذه الاضطرابات بشكل مزمن قد لا يدرك طبيعة المشكلة ، ولكنه يشعر بعدم القدرة على التعامل بشكل مناسب مع المتطلبات العادية للحياة .

ونفس الأمر يمكن أن يقال عن أثر الاضطرابات السيكولوچية (النفسية) على فسيولچيا الجسم (أي على وظائف أعضاءه) خصوصًا

الجهاز العصبي والغدد الصماء والجهاز الدوري والجهاز التنفسي والمعدة وسكر الدم . مما جعل طبيب سويسري كبير (Bleuler) يعلن فساد فكرة البحث عما إذا كان المرض جسميًا أم نفسيًا حيث يذهب إلى أنه « من الخطأ أن نتساءل : هل نحن أزاء حادث عضوي أم حادث نفسي . والواجب أن نستبدل بذلك قولنا إلى أي حد هو عضوي وإلى أحد حد هو نفسي »[١] .

* * *

---

(١) نقلاً عن الدكتور مصطفى زيور مقال : الطب النفسي والمرض العضوي ، ص ١٤٨ .

البحث عن العقل والروح

البحث عن العقل والروح

استطاع عالم الأعصاب الكبير بنفيلد ـ من خلال تسليطه لقطب كهربائي على دماغ الإنسان أن يرسم خريطة كاملة تبين مناطق الدماغ المسئولة عن النطق والحركة وجميع الحواس الداخلية والخارجية . غير أنه لم يكن في المستطاع تحديد موقع العقل أو الإرادة في أي جزء من الدماغ . فالدماغ هو مقر الإحساس والذاكرة والعواطف والقدرة على الحركة ، ولكنه فيما يبدو ليس مقر العقل أو الإرادة .

وليس في قشرة الدماغ أي مكان يستطيع التنبيه الكهربائي فيه أو يجعل المريض يعتقد أو يقرر شيئًا . والالكترود (القطب الكهربائي المستخدم للتنبيه) يستطيع أن يثير الأحاسيس والذكريات ، غير أنه لا يقدر أن يجعل المريض يصطنع القياس المنطقي ، أو يحل مسائل في الجبر . بل إنه لا يستطيع أن يحدث في الذهن أبسط عناصر الفكر المنطقي . والالكترود يستطيع أن يجعل جسم المريض يتحدث ، ولكنه لا يستطيع أن يجعله يريد تحريكه . إنه لا يستطيع أن يكره الإرادة . فواضح إذاً أن العقل البشري والإرادة البشرية ليس لهما أعضاء جسدية.

وبناء على ما تقدم ، لا ترى النظرة الجديدة في العالم استحالة تأثير الإرادة في المادة . ويشرح اكلس ذلك فيقول [١] : « تعلمت بالتجربة الثابتة أنني بالتفكير والإرادة أستطيع أن أتحكم في أفعالي إذا شئت ذلك . وليس في وسعي أن أفسر تفسيراً علميًا كيف يستطيع التفكير

---

(١) نقلاً عن العلم في منظوره الجديد .

أن يؤدي إلى الفعل، ولكن هذا العجز يأتي مصداقًا لكون علوم الفيزياء والفسيولوچيا في وضعها الراهن بدائية للغاية ، أعجز من أن تتصدى لهذه المهمة العسيرة ، وحين يؤدي التفكير إلى الفعل أجدني مضطراً كعالم متخصص في الأعصاب إلى افتراض أن تفكيري يغيّر ، بطريقة تستعصي على فهمي تمامًا ، أنماط النشاط العصبي التي تؤثر في دماغي . وهكذا يصبح التفكير متحكمًا في شحنات النبضات الناشئة في الخلايا هرمية الشكل للقشرة الحركية في دماغي ، كما يتحكم آخر الأمر بتقلصات عضلاتي والأنماط السلوكية الناشئة منها » .

فإذا كانت الإرادة البشرية غير مادية فليس ما ينافي العقل أن تتصرف بغير طرق المادة ، أي بحرية اختيار . ومن ثَمَّ ، فالنظرة الجديدة لا ترى في الاعتراف باستقلال الإرادة فينا أي مجانبة للأسلوب العلمي . ويخلص اكلس من ذلك إلى أنه « ليس هناك إذاً أسباب علمية وجيهة لإنكار حرية الإرادة، التي لابد من افتراض وجودها إذا أردنا أن نتصرف كباحثين علميين »[(١)] .

زد على ذلك أن النظرة الجديدة لا ترى في قدرة العقل على توجيه أنشطة الدماغ أمراً مستحيلاً . ويصف عالم الأعصاب روجر سبري الثورة الفكرية التي حدثت في عالم النفس خلال السبعينات من هذا القرن والتي أحدثت انقلابًا مثيراً في معالجة الوعي فيقول[(٢)] : « لقد قلبت المبادئ السلوكية التي سادت طوال نصف قرن ونيّف . وأخذ علم

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

النفس فجأة يعالج أحداثًا ذاتية ـ كالصور الذهنية والأفكار الباطنية والأحاسيس والمشاعر والأفكار وما إليها ـ بوصفها عوامل ذات دور سببي حقيقي في وظيفة الدماغ وفي السلوك » .

وينتهي سبري من ذلك إلى أن « الخواص المخية العليا للعقل والوعي هي التي تملك زمام الأمر ، وهي التي تحدد الحركات وتتحكم نزوليًا بحركة النبضات العصبية ونموذجنا الجديد ـ أي المبدأ الذهني ـ هو الذي يشغّل العقل والخواص الذهنية ويعطيها سبب وجودها وتطورها في نظام مادي »[١] .

إن المعرفة والقيادة تتطلبان قدراً من البعد . فلا يمكن أن يكون العقل ظاهرة ثانوية مصاحبة لآلية الأعصاب إذا أريد له أن يعاين ويوجّه الكلّ . ويقول بنفيلد[٢] : « إن العقل ، لا الدماغ ، هو الذي يراقب ويوجّه في آن معا » . فالعقل هو المسؤول عن الوحدة التي نحس بها في جميع أفعالنا وأفكارنا وأحاسيسنا وعواطفنا .

ولو كان الدماغ حاسبة الكترونية بالغة التعقيد فلابد له إذاً ، شأنه شأن الحاسبة ، من أن يوجّه من قبل العقل . ويقول بنفيلد[٣] : « إن الحاسبة الإلكترونية (والدماغ هو كذلك) لابد من أن تبرمجها وتديرها قوة قادرة على الفهم المستقل » .

وهكذا فإن توقع العثور على العقل في أحد أجزاء الدماغ ، أو في الدماغ كله . أشبه بتوقع كون المبرمج جزءاً من الحاسبة الإلكترونية .

---

(١) ، (٢) ، (٣) نقلاً عن المرجع السابق .

وبناء على الأدلة سالفة الذكر لا يرى بنفيلد أي أمل في النهج المادي للنظرة القديمة إزاء العقل فيعلن : « إن توقع قيام آلية الدماغ العليا ، أو أي مجموعة من ردود الفعل ، مهما بلغت من التعقيد ، بما يقوم به العقل . وبأداء جميع وظائفه أمر محال تمامًا » [١] . ويوافق عالم الأحياء أدولف بورتمان على ذلك فيقول [٢] : « ما من كمية من البحث على النسق الفيزيائي أو الكيميائي يمكنها أبداً أن تقدم صورة كاملة للعمليات النفسية والروحية والفكرية » .

ومن دواعي السخرية أن بنفيلد بدأ أبحاثه بهدف إثبات العكس تمامًا فيقول [٣] : « طوال حياتي العلمية سعيت جاهداً كغيري من العلماء إلى إثبات أن الدماغ يفسر العقل » . فهو قد بدأ مسلحًا بجميع افتراضات النظرة القديمة ، غير أن الأدلة حملته آخر الأمر على الإقرار بأن العقل البشري والإرادة البشرية حقيقتان غير ماديتين . ويعلن بنفيلد [٤] : « يا له من أمر مثير، إذاً ، أن نكتشف أن العالم يستطيع بدوره أن يؤمن عن حق بوجود الروح » . وإذا كان العقل والإرادة غير ماديين فلاشك أن هاتين الملكتين على حد تعبير أكلس [٥] « لا يخضعان بالموت للتحلل الذي يطرأ على الجسم والدماغ كليهما » .

* * *

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) نقلاً عن المرجع السابق .

أسرار الروح

لا يستطيع إنسان محايد يملك عقل فطري أو يملك عقل على درجة كبيرة من الوعي أن ينكر أن هناك شيئًا قويًا يحرك الإنسان ويتحكم فيه غير التركيبات المادية التي يتكون منها . ونحن لا نستطيع أن نسمى هذا الشئ شيئًا آخر غير الروح .

فوجود الروح أمر يعيه العقل بقوة إلى الدرجة التي لا يستقيم بدونها فهم هذا الوجود .

ولكن الأمر مثير للكثير من الأسئلة .

ما هي الروح ؟

أين توجد ؟

هل هي نوع من الأجسام ؟

هل يستطيع أحد إبصارها ؟

كيف يمكنها أن تتصل بالأرواح الأخرى دون أن تتلاقي الأجسام ؟

وقد أثارت هذه الأسئلة الكثير من الحيرة سواء كان ذلك في الغرب أو في الشرق .

وقد حاول أن يتصدى للإجابة عنها الكثير من الحكماء والمفكرين والأدباء ولكن دون جدوى فلقد جاءت إجاباتهم باعثة للحيرة أكثر من تلك الأسئلة ذاتها .

ولقد جاءت إجابة القرآن عن هذا النوع من الأسئلة المتعلقة بالروح إجابة جامعة مانعة كما جاء في قوله تعالى :

﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

نعم إن الروح من أمر الله وأسرارها موكولة إليه .

وقد حاول البعض أن يناطح الصخور لكي يكشف عن هذه الأسرار فما زاد الناس إلا شطح وحيرة .

ونحن لا نتفق مع بعض المفسرين الذين ذهبوا إلى اعتبار هذه الآية غير صريحة في بيان أن إدراك أسرار الروح أمر يخرج عن قدرات البشر.

وقد عرض الإمام ابن القيم في كتابه (الروح) للكثير من الآراء التي حاولت الإجابة عن هذه الأسئلة فلم يأت شئ منها من الممكن أن يستريح له العقل أو القلب .

ولذلك فنحن نميل إلى ما ذهب إليه المفسرين الذين التزموا بالمعنى المباشر من الآية وفوضوا أمر أسرار الروح إلى الله سبحانه وتعالى .

* * *

أقوال المفسرين فى الروح

فى تفسير الإمامين الجلالين : « الروح من أمر ربى » أى علمه لا تعلمونه

وفى الرازى : « الروح جوهر بسيط مجرد يحدث بأمر الله وتكوينه وتأثيره فى إفادة الحياة لهذا الجسد ولا يلزم من عدم العلم بحقيقتة المخصوصة نفيه فإن أكثر حقائق الأشياء وماهيتها مجهولة ولم يلزم من كونها مجهولة نفيها »

وفى الألوسى : « من أمر ربى » أى هى من جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه من الأسرار الخفيه التى لا تكاد تدركها عيون عقول البشر

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أخرج بن اسحق وابن جرين عن عطاء بن يسار قال : نزلت هذه الآية بمكة فلما هاجر صلى الله علية وسلم إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا : يا محمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول بـ « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » أفعنيتنا أم قومك ؟ قال : « « كلا كما قد عنيت » .

وفى ابن كثير : « قل الروح من أمر ربى » أى من شأنه ومما أستأثر بعلمه دونكم ولهذا قال : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أى وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى والمعنى أن علمكم فى علم الله قليل وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ولم يطلعكم عليه كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه » .

وفى الظلال للأستاذ سيد قطب : الروح غيب من غيب الله لا يدركه

سواه وسره من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشرى وبعض الخلائق التى لا نعلم حقيقتها .

وعلم الانسان محدود بالقياس الى علم الله المطلق وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشرى المحدود والإنسان لا يدبر هذا الكون فطاقاته ليست شاملة إنما وهب منها بقدر محيطه وبقدر حاجاته ليقوم بالخلافة فى الأرض ويحقق فيها ما شاء الله أن يحققه فى حدود علمه القليل » .

هل الروح هي النفس ؟
أم أنهما شيئان مختلفان ؟

في الحقيقة إن الروح هي النفس الإنسانية .

ولكن عند تعلق الروح ببدن الإنسان وتفاعلها مع الواقع فإن الأنسب لها أن تسمى النفس « أما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس » [١] .

أي أن الفرق بين النفس والروح « فرق بالصفات لا فرق بالذات » [٢] .

وبعد أن كتبت هذا الكلام قرأت للإمام ابن كثير الكلام الآتي : « وحاصل القول : أن الروح هي أصل النفس ومادته والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن فهي من وجه لا من كل وجه وهذا معنى حسن » [٣] . ا . هـ .

* * *

(١) ابن القيم : الروح : ص ٢٩٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٩٠ .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير للشيخ محمد علي الصابوني ، الجزء الثاني ، ص ٣٩٨

هل النفس واحدة أم ثلاثة مطمئنة ولوامة وأمارة بالسوء ؟

يقول الإمام ابن القيم : « وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس : نفس مطمئنة ، ونفس لوامة ، ونفس أمارة . وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب الأخرى . ويحتجون على ذلك بقوله تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ [الفجر : ٢٧] .

وقوله تعالى : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ [القيامة : ١ ، ٢]

وقوله تعالى : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ [يوسف : ٥٣] .

والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم » [(١)] .

أي أن النفس واحدة ولها صفات مختلفة وهذه المسميات هي مسميات للحالة الغالبة عليها .

يقول الإمام ابن القيم :

« وقد انتصبت الأمارة في مقابل المطمئنة فكلما جاءت به تلك من الخير ضاهتها هذه وجاءت من الشر » [(٢)] .

---

(١) ابن القيم : الروح : ص ٢٩٣ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٠٤ .

وما يقوله الإمام ابن القيم هنا يتفق مع ما ذهبنا إليه في نظريتنا الإسلامية حول صراع القيم في النفس الإنسانية وهو ما سنتعرض له في الفصول القادمة .

* * *

ثانيــاً
النظرية الإسلامية
فى الســلــوك الإنســانى

١ - رغبات النفس الإنسانية

رغبات [1] النفس الإنسانية

الحقيقة الفطرية البديهية أن للنفس الإنسانية رغبات متباينة غريزية ومعنوية وتحديد هذه الرغبات وتحديد مدى قوتها يكون نتيجة للتشكيل التكويني لباقي الأجزاء الأخرى للنفس الإنسانيةومدى علاقتها بالمجتمع والوعي به .

ومن الجوانب الوراثية للنفس الإنسانية التي تتدخل في تحديد هذه الرغبات : الذكاء والصفات الطبيعية الأخرى كالجمال والقوة البدنية .

فمن البديهي أن تختلف رغبات البليد عن الشخص العادي عن الشخص العالي الذكاء عن الشخص العبقري وما يقال هنا يقال بالنسبة للصفات الطبيعية الأخرى كالجمال والقوة البدنية .

ومن الطبيعي أيضًا أن تختلف رغبات البشر بحسب قدراتهم العقلية وما يستتبع ذلك من تباين في الوعي بالعالم ويزداد هذا التباين مع تطور الأشخاص من الطفولة إلى المراحل التالية المختلفة .

وهناك الجوانب المتعلقة بالظروف البيئية الخاصة لكل شخصية .

فرغبات الثري مثلاً تختلف عن رغبات الفقير .

ورغبات ابن الواقع الأرستقراطي تتباين عن رغبات ابن الواقع البرجوازي عن رغبات ابن الواقع الفقير .

ورغبات ابن الواقع المنحل تختلف عن رغبات ابن الواقع المتدين .

---

(١) استخدمنا تعبير رغبات ولم نستخدم تعبير غرائز أو دوافع لأن تعبير رغبات يشمل الرغبات الغريزية والمعنوية معًا .

كما يدخل في تحديد هذه الرغبات الجوانب التي تدخل في تشكيل الشخصية مع واقعها البيئي .

فلا شك أن رغبات الشخصية المنتصرة تتباين كثيراً عن رغبات الشخصية المحبطة .

ويخرج عن حدود الاستطاعة حصر رغبات النفس لكننا نستطيع أن نميز عدة رغبات كبرى لها في الصفحات القادمة .

* * *

الرغبة الجنسية

وهي غريزة طبيعية أولية للنفس الإنسانية كالظمأ والجوع ولكن لتعلقها بمستوى أعقد من العلاقات والآثار الاجتماعية جعل منها الغريزة الأخطر .

فالرغبة الجنسية في حدها الأولى تتفق مع الظمأ والجوع في كونها حاجة بشرية تتطلب التلبية ولكن المشكلة في كون أمر التلبية هذا ليس بالبساطة التي تتسم به عملية التلبية في حالتي الظمأ والجوع . فموضوع التلبية في الحالتين الأخيرتين (الشراب والطعام) لا إرادة له فيهما ومن ثَمّ لا يكون مصدراً لإثارة المشاكل هذا بخلاف موضوع الرغبة الجنسية والذي هو كائن بشري آخر له نفس الرغبة التي للأول ولكن ليس شرطًا أن يتفق موضوعها معه .

وصحيح أن عملية الحصول على التلبية في حالة الظمأ والجوع تصطدم بمصالح الآخرين في تلبية حاجاتهم ولكن الأمر لا يمكن مقارنته في حالة تلبية الحاجة الجنسية حيث يكون الإصطدام أكبر كثيراً مع شبكة المصالح والمحرمات الاجتماعية من هنا تأخذ المشكلة الجنسية أبعادها الخطيرة وضغوطها الشديدة التأثير على السلوك الإنساني .

ولكنا إذا أردنا أن نقدر الحجم الطبيعي لهذه الغريزة وتأثيرها على السلوك الإنساني فليس هناك ضرورة تجعلنا ننظر إليها في حالة عدم القدرة على تلبيتها ولكن علينا أن ننظر إليها في حالة القدرة على تلبيتها وهي الحالة الأعم على كل حال .

إننا لو نظرنا إليها من هذه الحالة لوجدنا أنها تتدرج بشكل طبيعي جداً في سلم الحاجات الطبيعية الغريزية التي تكاد لا تمثل تأثيراً ذا بال على السلوك الإنساني بمجرد إشباعها بشكل دوري مثلها في ذلك مثل الظمأ والجوع .

إننا لو نظرنا في سلوك المتزوجين الذين ينعمون بالتوافق الجنسي (وهم كثار جداً على كل حال مهما تعددت الحالات الأخرى المخالفة لذلك) لوجدنا أن الرغبة الجنسية لن يعد يمثل أشباعها لديهم أكثر من حاجة إلى المتعة تلبى بصفة شبه دورية ولا تزيد كثيراً في أهميتها عن الظمأ والجوع وترتقي عنها في الأهمية الحاجة إلى الأنس والمودة والتراحم والسكن مع الطرف الآخر في العلاقة الزوجية .

وتضائل مدى ما تمثله الغريزة الجنسية من ضغوط يظهر بشكل أوضح لدى الإباحيين حيث يؤول الأمر لدى هؤلاء إلى أن تتطابق هذه الرغبة مع الرغبة في الطعام وتكاد تتساوى الحاجة إلى تلبيتها مع نفس الحاجة إلى سد الجوع عند الإحساس به وكثيراً ما يؤدي تعدد العلاقات الجنسية عند هؤلاء إلى فقدان الرغبة الجنسية إلى الكثير من القيم الجمالية ذاتها فتصير القضية هي الحصول على امرأة أي امرأة يمكن من خلالها سد الجوع الجنسي مثلهم في ذلك مثل الذين اعتادوا التهام الكثير من الأطعمة المختلفة ولم يعد أمر الطعام لديهم يمثل تلبية ذوق خاص وإنما هو مجرد موضوع لسد الجوع .

إن تحليلنا لمدى تأثير الغريزة الجنسية من منظور القدرة على تلبيتها يقلل كثيراً من الأهمية المثارة على السلوك الإنساني ويجعلها تتخلف

كثيراً في المكانه عن تأثير رغبات أخرى أشد خطراً على السلوك الإنساني بالنسبة للبشر بوجه عام كالرغبة في النبوغ والرغبة في السيطرة والرغبة في السمو الديني .

ونحن نتكلم هنا من منظور الواقع التاريخي للبشر ولا يتدخل في تحليلنا مجرد فروض نظرية لا يملك أحد البرهنة عليها [١] برهانًا علميًا فضلاً عن تناقضها مع الفكر الفلسفي بوجه عام .

أما إذا نظرنا إلى أثر هذه الغريزة في حالة عدم القدرة على التلبية فإن أمامنا ثلاثة فروض ، الأول : حالة التسامح الديني . والثاني : حالة العدوان الاجتماعي بالتلبية اللاشرعية للحاجة الجنسية . وفي هاتين الحالتين فإن الضغط الغريزي يكون ذو أثر محدود على الواقع الاجتماعي العام . أما الفرض الثالث : وهو فرض العشق فإننا نأجل مناقشته الآن لموقفنا في كونه يشتمل على العديد من الرغبات وليس الرغبة الجنسية فقط .

يبقى الآن فرض وحيد يغري بتأييد الوجهة الفرويدية الذاهبة إلى اعتبار الغريزة الجنسية المحرك الأساسي لمختلف نشاط السلوك الإنساني هذا الفرض هو ما يذهب إليه فرويد من كون الغريزة الجنسية هي السابقة زمنيًا لمختلف الرغبات الأخرى .

---

(١) مثل فروض فرويد التي تجعل من بعض هذه الرغبات مجرد أثر مترسب في الأنا الأعلى ناتج عن عملية كبت الرغبات الغريزية الجنسية الصادرة عن الهو: راجع لفرويد : الأنا والهو . فصل الأنا والأنا الأعلى .

ويرد على هذا الفرض بأنه ليس هناك دليل علمي واحد يثبت ما يذهب إليه فرويد من كون الحياة الجنسية للإنسان تبدأ بمجرد الولادة وليس عند البلوغ كما هو معروف علميًا .

ونحن نعتقد بوجود رغبة أخرى أشد سبقًا من حيث تأثيرها على السلوك الإنساني من الرغبة الجنسية [1] . ألا وهي الرغبة في التأثير

---

(١) يذهب فرويد إلى أن الحياة الجنسية للطفل تبدأ عقب ولادته مباشرة ويستدل على ذلك بأن : « إصرار الطفل بعناد على الرضاعة ليدل دلالة واضحة في هذه المرحلة المبكرة وجود الرغبة فى الحصول على اللذة ومع أن هذه الحاجة تنشأ في الأصل وتستمد قوتها من تناول الغذاء إلا أنها مع ذلك تسعى وراء اللذة بصرف النظر عن تناول الغذاء ولهذا السبب فمن الممكن بل من الواجب أن نصف هذه الرغبة بأنها جنسية » .

[فرويد : معالم التحليل النفسي ص ٥٧ ، ٥٨]

لقد قال فرويد : فمن الممكن فلنتوقف عند هذه النقطة لأنه لا يوجد أي دليل علمي يجعلنا نستطرد معه إلى قوله : بل من الواجب . فإذا كان من الممكن عند فرويد أن توصف هذه الرغبة بأنها رغبة جنسية بالرغم من أن ذلك مجافي للعقل والمنطق والطبائع السليمة فإننا من الممكن أن نصفها أنها الرحمة الطبيعية التي وضعها الله في العلاقة بين الابن والأم .

وإذا أردنا أن نتحدث من المنظور المادي البحت الذي ينطلق منه فرويد لقلنا إن يفرض أنه الطفل يفعل ذلك نشدانًا للذة فما الضرورة التي تجعلنا نرجع هذه اللذة إلى اللذة الجنسية وهو الفرض الذي يتناقض مع كل المفاهيم العلمية المعروفة عن النشاط الحيوي للوليد . لماذا لا نعتبرها امتداداً للذة الشبع بالاستمرار في الامتصاص وهو أمر قد يحدث عند الكبار أنفسهم عند امتصاصهم لبعض المشروبات . ثم ماذا من الممكن أن يكون تفسير نفس الشيء الذي يحدث بالنسبة للوليد البنت أي باستمرارها على الرضاعة بصرف النظر عن تناول الغذاء هل من الممكن أن يفسر فرويد ذلك بالتمادي في فروضه الأسطورية واعتبار أن ذلك يرجع إلى إصابة الوليد المؤنث منذ الولادة بالمثلية الجنسية (أي بالدافع الجنسي نحو نفس النوع) ؟!...

عند الطفل والتي تتبلور بعد ذلك في رغبات أخرى كالرغبة في السيطرة والرغبة في النبوغ .

فالطفل يحب دائمًا أن يتنبه الآخرون لوجوده ووسيلته إلى ذلك هو صنع ما يستدعى استحسان الآخرين كالحفظ السريع للعبارات أو حتى أن يستدعى استنكارهم لتحطيم القوارير والأواني فهو يريد أن يكون نشطًا .. أن يستطلع .. أن يعالج يدويًا .. أن يبهر بسلوكه في اللعب.

ويذهب روبرت هوايت صاحب مبدأ (التأثيرية) في تفسير السلوك الإنساني (أي الرغبة في التأثير على البيئة) إلى أن « دوافع التأثير خاصية كامنة في الطفل عند الولادة وباختصار فالتأثير حافز أولي كحافز الجوع أو العطش أو الجنس وأنه أكثر أهمية بكثير من مثل هذه الحوافز من حيث أنه يساعدنا على فهم المهارات الملحوظة التي يكشف عنها الإنسان في تعامله مع بيئته »[(١)] .

وعلى الرغم من ترويج العلمانيين عندنا لنظريات فرويد على أنها حقائق مسلمة فإن الحقيقة أن هذه النظريات لا تشكل إلا اتجاه مدرسة من مدارس علم النفس العديدة المنتشرة في العالم .

وأن آراء فرويد تلقى هجومًا شديداً من جمهور الأطباء والفلاسفة في العالم .

بل وداخل مدرسة فرويد نفسها والتي أطلق عليها مدرسة التحليل النفسي لم تسلم هذه الأراء من الإنتقادات الشديدة فلقد تسببت آراء

---

(١) ريتشاردس لازاروس : الشخصية ص ١١٥ .
ترجمة الدكتور/ سيد محمد غنيم . مراجعة الدكتور/ محمد عثمان نجاتي .

فرويد في الدور الذي تلعبه الغريزة الجنسية في حياة الإنسان وسلوكه إلى انفصال اثنين من أبرز المنتمين لمدرسته وهما أدلر ويونج .

فقد ذهب أدلر إلى أن « دافع القوة (أي إقرار الذات) هو القوة الإيجابية المسيطرة على الحياة على خلاف فرويد الذي يعتبر الدافع الجنسي هو القوة الهامة الفعالة في الحياة »[١] .

أما يونج فقد ذهب إلى أن فرويد « قد تغالى في الدور الذي تلعبه الغريزة الجنسية في تكوين الأعصاب وفضل أن يعطى لليبيدو معنى أوسع من المعنى الذي وضعه فرويد وهو الطاقة الجنسية . يعني يونج باللبيدو (الطاقة الحيوية الكلية) . وتظهر هذه الطاقة في صورة مختلفة من النشاط : النمو والتناسل والحب واللعب وغير ذلك من مظاهر النشاط الإنساني ويرى يونج أن فرويد قد قصر اهتمامه على الصورة الجنسية لهذه الطاقة الحيوية »[٢] .

وهناك الكثير من الدراسات التي تتناول أثر العقيدة اليهودية التي ينتمي إليها فرويد في فكره خصوصًا وأن الكتب المقدمة التي يتداولها اليهود تمتلئ بعشرات القصص عن زنا المحرمات وتتحدث عن العلاقات الجنسية بلغة متطرفة في إباحيتها . ولكن هذا الأمر لا يتسع المجال لمناقشته هنا .

* * *

---

(١) مقدمة الدكتور/ محمد عثمان نجاتي لكتاب « معالم التحليل النفسي » لفرويد : ص ٣٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٦ .

الرغبة في تحقيق الذات والرغبة في الإســـتعلاء

الرغبـة في تحقـيق الذات .. أو إثبـات القـوة .. أو السـيطرة .. أو الذاتية .. أو الآنيـة .. أو النرجسيـة .. أو الاستعلاء في الأرض .. أو التأله .. أيًا كانت التسمية أو بقول أقرب إلى الدقة أيًا كانت الدرجة وأيًا كان الاتجاه الذي تريد هذه الرغبة تحقيقه .

فالحد المقبول والشرعي لهذه الرغبة هو ألا يتعدى أمرها السعي وراء التوازن والثقة والاستقامة في نفس كل إنسان .

ولكن قـد يتـعـدى أمر هذه الرغـبـة هذه الدرجـة في تحـقـيـق الذات وينحرف عن هذا الاتجاه الشرعي لها إلى الرغبة في الاستعلاء والسيطرة والتأله حتى تحطم في طريقها إلى تحقيق ذلك ليس حقوق الآخرين فقط بل أهم الرغبات الحيوية الأخرى لصاحب هذه الرغبة نفسه .

والاتجاه السليم والحد المقبول لهذه الرغبة هو أن يحقق الإنسان ذاته بأن يجسد على الواقع ما تستطيع قدراته تحقيقه من إنجازات وذلك من خلال بذل توجيه متوازن لطاقاته فيتمخض عن ذلك الإبداع ويكشف النبوغ عن نفسه ويحقق كل إنسان ذاته ومجده فإذا تعدى الإنسان الحد المقبول للطاقة المبذولة في هذا الاتجاه على حساب نشاطات أخرى أساسية في حياته من أجل تحقيق ذاته فإنه يتجاوز بذلك الحد الشرعي المسموح له في إثبات الذات لأن الرؤية الإسلامية في الحقيقة تقوم على التوازن في توجيه الطاقات إلى النشاطات الحيوية المختلفة للإنسان .

وقد يحدث أيضًا أن ينحرف الاتجاه ويصبح الهدف من هذه الرغبة ليس مجرد تحقيق الذات ولكن الرغبة في السيطرة أو الاستعلاء أو التأله .

وما يفعله هؤلاء من جرائم من أجل تحقيق هذه الرغبة تمتلئ به صفحات التاريخ ويحفل به الواقع في كل مكان .

رجل عبقري .. فلتحترق الدنيا من حوله لكي يركع الجميع لعبقريته .

قائد عظيم .. لابد أن يتحدث التاريخ عن أهوال عظمته حتى ولو إمتلأت صفحاته بجرائمه .

امرأة جميلة .. لابد أن يتساقط أكبر قدر من المجانين حولها لكي تشعر أنها نالت التقدير المناسب لجمالها .

وقد تحترق البلاد في نيران الحروب من أجل أن يقدم القادة التقدير المناسب لبعض النساء الجميلات .

والتاريخ يمتلئ بشواهد كثيرة على ذلك .

رجل غني .. يبذل الأموال لكي يركع بعض الناس ولكي ينحني الآخرون بلا مال .

عالم .. يعتكف في معمله ويحرق عمره فيه ويضحي بكافة نشاطاته الحيوية من أجل أن يثبت أنه أكثر نبوغًا من الآخرين .

وقد تصل درجة هذه الرغبة إلى الرغبة في الشعور بالألوهية .. الرغبة في أن يصير الإنسان هو الحاكم المتحكم الوحيد في كل من حوله وهو الأمر الذي يكثر وجوده بين الملوك وإن تكن الرغبة في السيطرة في

الواقع الاجتماعي الذي يعيشه الإنسان قد تصل إلى هذه الدرجة في التأله بحيث يريد الشخص أن يتحكم تحكمًا كاملاً في كل من حوله إلى الدرجة التي لا ينسجم معها شعوره الداخلي إلا إذا استطاع تحقيق ذلك بل ويشعر بالعذاب الشديد إذا خالف أحد أي أمر من أوامره .

ونحن نريد من كل ما سبق أن نبرز مدى إلحاح هذه الرغبة على أصحابها إلى الدرجة التي تجعلهم يضحون بنشاطات كثيرة في حياتهم من أجلها ومدى تأثير ذلك على السلوك الإنساني بوجه عام والشواهد التاريخية والواقعية خير شاهد لنا على ما نقول .

* * *

الرغبة فى جمع المال

أول ما يقال عن المال من الناحية الموضوعية أنه وسيلة لتحقيق الرغبات ومن ثم فإن الرغبة فى جمع المال هى رغبة فى امتلاك الوسيلة التى يمكنها تحقيق الرغبات وهو ما يعنى أن جمع المال فى ذاته لا يشكل رغبة مستقلة ولكن من الناحية الواقعية فإن الرغبة فى جمع المال لا تقف لدى الكثيرين عند حدود امتلاك المال الذى يمكن من خلاله الحصول على الرغبات فحتى لوامتلكوا هذا القدر من المال فإن الأمر يتجاوز ذلك كثيرا ولا يقف عند حدود معينة .

ويقال أيضاً أن الرغبة فى جمع المال تخفى داخلها رغبة أخرى هى الرغبة فى الشعور بالأمان بمعنى أن الهدف من الحصول على المال هو تحقيق اكبر قدر من الأمان فى امتلاك القدرة ليس على تحقيق الرغبات فى الحاضر فقط وإنما فى المسقبل أيضا . ونفس الأمر من الممكن أن يقال من الناحية الواقعية بالنسبة لهذا التفسير لأن هذه الرغبة تتجاوز كثيراً حدود القدر الذى يستطيع توفير ذلك الأمان المنشود .

وقد يقال أيضاً أن وراء الرغبة فى جمع المال الرغبة فى السيادة لأن المال يصبح مظهراً من مظاهر سيادة صاحبه على الاخرين . ولكن يدفع ذلك أن الكثيرين قد يضحون بمظاهر السيادة ويرتضون بالمشين من الأوضاع من أجل تحقيق هذه الرغبة فى جمع المال .

يبقى الآن أن نقول أن هذه الرغبة تمثل لدى الكثيرين رغبة مستقلة حتى وان كانت تنطوى فى داخلها - فى الكثير من الحالات - على رغبات أخرى كما أنه ليس شرطا إكتساب هذه الرغبة عن طريق النمو فى أطوار الحياة المختلفة بل أنه من الممكن تلقيها منذ الطفولة من البيئة المحيطة .

الرغبة فى الأمان

الرغبة في الأمان هى إحدى الرغبات التى تعمل على حفظ الذات والإبتعاد بها عن المخاطر . وإن كانت هذه الرغبة تعمل على حفظ التوازن بين رغبات الانسان ونشاطاته عند الشخص المثالى فإن درجة تأثيرها على الاشخاص بوجة عام تتفاوت لدرجة كبيرة تبعا للتركيب الداخلى لكل شخص ومدى ما يمتلكه من وعى وما يتمسك به من قيم ومن الطبيعى أن تؤدى المبالغة فى هذه الرغبة إلى إصابة صاحبها بالجبن والخور والسلبية والفتور والرضى بالسقط من متاع الحياة . فهذه الرغبة هى التى تعمل على جعل الكثيرين يعيشون على طريقة المشى جنب الحيط ، ولازم نطاطى للريح والمية ما تجريش فى العالى والباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح .

والاثر الشديد لهذه الرغبة على حياة الناس أبين من أن نستدل عليه .

الرغبة فى التسامى الدينى

يقول الداعية الاسلامى الكبير الأستاذ مصطفى مشهور[١]

« إن سعادة الربانيين يرونها فى أن يتقاسم الناس معهم عقائدهم السليمة وأفكارهم الصحيحة وأن يؤمنوا بها وأنهم مجرد وسطاء فى نقلها وترجمتها إليهم من النبع الصافى الذى يستمدونها منه ولا ينسبون لأنفسهم فضلاً ولا ينتظرون من غيرهم جزاء ولا شكورا »

قد يقول البعض أن الرغبة الدينية تمثل السعى وراء وعد بتحقيق رغبات الإنسان الحسية فى عالم الغيب عوضاً عن تحقيقها فى عالم الواقع لكن الحقيقة فإن الرغبة فى السمو الدينى تجد نبعها فى شعور ذاتى بالرغبة فى السعى نحو ما هو كامل .. مثالى .. روحى دون أن يقترن ذلك بالسعى وراء مطلب حسى سواء فى عالم الغيب أو عالم الشهادة وإن يكن ثواب الإنسان فى عالم الغيب يمثل تحفيزاً كبيراً له على المضى فى السلوك الدينى ولكن الحقيقة أن هذه الرغبة فى السمو تتجاوز هذا الثواب .

حين استدعوا معاوية الثانى - حفيد معاوية وأبن يزيد - للخلافة بعد موت أبيه قام في الناس خطيباً : « أيها الناس إن جدى معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو على بن أبى طالب وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته فصار فى قبره رهيناً بذنوبه أسيراً بخطاياه . ثم قلدّ أبى الأمر فكان غير أهل لذلك وركب هواه وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل وصار فى قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بجرمه وأن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء بين

---

(١) الربانية والمادية : ص ١١٦

مصرعه وبئس جرمه وضربه الكعبة وما أنا بالمتقلد ولا بالمحتمل تبعاتكم فشأنكم وأمركم .

وما أقرأ هذه القصة - التى لا أكاد أجد لها نظيراً - إلا وأرتعد يقول ابن القيم فى كتابه الجواب الكافى: (وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه مشهور لجارية فاطمة بنت عبد الملك وكانت جارية بارعة الجمال . كان

معجباً بها وكان يطلبها من امرأته ويحرص على أن تهبها له فتأبى ، ولم تزل الجارية فى نفس عمر ، فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت وكانت مثلاً فى حسنها وجمالها . ثم دخلت على عمر وقالت : يا أمير المؤمنين إنك كنت معجباً بجاريتى فلانه ، وسألتها فأبيت عليك والان فقد طابت نفسى لك بها فلما قالت له ذلك استبان الفرح فى وجهه وقال عجلى على بها ، فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجباً وقال لها ألقى ثيابك ففعلت (أى أنها صارت عارية بدون ثياب) ، ثم قال لها على رسلك أخبرينى لمن كنت ؟ ومن أين صرت لفاطمة ؟ فقالت : أغرم الحجاج عاملاً له بالكوفة مالاً ، وكنت فى رقيق ذلك العامل . فأخذنى وبعث بى إلى عبد الملك فوهبنى لفاطمة ، قال : وما فعل ذلك العامل ؟ قالت هلك ، قال وهل ترك ولداً ؟ قالت : نعم ، قال : فما حالهم ؟ قالت : سيئة فقال ردى عليك ثيابك واذهبى إلى مكانك ، ثم كتب إلى عامله بالعراق : أن أبعث إلى فلان بن فلان على البريد ، فلما قدم قال له : ارفع الى جميع ما أغرمة الحجاج لأبيك . فلم يرفع إليه شيئاً إلا دفعه إليه ، ثم أمر بالجارية فدفعت إليه ثم قال له :إياك وإياها ، فلعل اباك قد ألم بها . فقال الغلام :

هى لك يا أمير المؤمنين قال لا حاجة لى بها ، قال : فابتعها منى (أى فاشتريها منى) ، قال : لست إذاً ممن نهى النفس عن الهوى ، فلما عزم الفتى على الانصراف بها قالت : أين وجدك بى يا أمير المؤمنين ؟ (أى أين حبك الشديد لى) قال : على حاله ، ولقد زاد » .

هذه هى من يحب ويشتد وجده بها تقف أمامه عارية بكل فتنتها الداخلية والخارجية وهى رهن إشارته بعد طول شوق ولهفة ، وها هو يعرض عنها ويزهد فيها رفعة بنفسه عن رغائب الدنيا على الرغم من كونها مباحة له . إن العشاق يعرضون أنفسهم للمهالك من أجل إبتسامة ممن يحبون فكيف من الممكن إذا تهيأت لأحدهم هذه الفرصة وكانت مباحة له أن يفرط فيها إنه أمر من الصعب جداً تصوره وهذا ما يجعلنى أقول إننى أكاد أرتعد كلما أقرأ هذه القصة .

وفى المثالين السابقين نجد أن الأمر يتجاوز السعى وراء الثواب وإنه يتعلق أساساً بالتقرب الشديد إلى الله والرفعة بالنفس عن رغائب الدنيا حتى وإن كانت مباحة ومهما كان الحاحها عن النفس إن كثيراً من الشهداء الذين يموتون فى سبيل الدين لايكون الدافع الأساسى لهم هو الحصول على الجنة وإنما يكون هدفهم الأساسى هو الإنطلاق نحو الله .

الحب كرغبة من رغبات النفس
وهل هو يعنى الجنس

إن الحب ذاته حالة فلسفية فريدة فى كونها .. فمن العجب العجاب أن الحب يمثل شاهداً محسوساً على وجود الروحانيات .. شاهداً قائما بذاته - من الممكن معايشته وتحسسه بل والإحتراق به - على أن هناك أموراً غيبية تتعدى قدرات الإدراك الإنسانى وتستطيع أن تحطم قواعد القوانين المادية التى يدركها الإنسان .

الحـــب
وهل هو يعني الجنس ؟

لماذا يعيشون العمر يحترقون ؟

هل من أجل الجنس ؟!..

لماذا يهـون لديهم المأكل والمشرب والنوم وسـائر صروف المتع والملذات والراحة ؟

هل من أجل الجنس ؟!..

لماذا يزهلون عن كل نشاطات الحياة وعن الدنيا وما فيها من نعم ؟

هل من أجل الجنس ؟!..

لماذا يصير اقتحام المخاطر أمراً طبيعيًا وحتميًا لديهم ؟

هل من أجل الجنس ؟!..

لماذا يكاد يتـلاشي الفرق لديهم بين الحياة والموت ولا يـصيـر هناك إلا فارق وحيد يولونه اهتمامهم هو مدى البعد أو القرب عمن يحبون ؟

هل من أجل الجنس ؟!..

لماذا يزهدون الجنس ذاته ويفقدون الرغبة فيه بفقدان من يحبون ؟

هل من الممكن أن يكون ذلك أيضًا من أجل الجنس ؟!..

لماذا تصير ابتسامة الحبيبة أفضل من مضاجعة كل جميلات العالم ؟

ما معنى هذا ؟ لماذا يكون ذلك ؟

هل من أجل الجنس ؟!..

إن وضـوح الفـارق بين الحب والجنس أمـر من الصـعب أن يزهل عنه العـقلاء ولا يسـتطيع أن ينكره التـاريخ لكن النزعة المادية التي سادت القرن التـاسع عشر أرادت أن تحطم كل الأمور التي تتعلق بالروحانيات ومن بينها الحب ، بل والحب بالذات . لماذا ؟

لأن الحب ذاته حالة فلسفية فريدة في كونها فمن العجب العجاب أن الحب يمثل شاهداً محسوساً على وجود الروحانيات .. شاهداً قائمًا بذاته ـ من الممكن معايشته وتحسسه بل والاحتراق به ـ على أن هناك أموراً غـيبية تتـعدى قـدرات الإدراك الإنسـاني وتسـتطيع أن تحطم قـواعد القوانين المادية التي يدركها الإنسان .

وقد أعـاق تقدم البحث في هذا الميـدان الرأي الذي قـال به رجلان من أعظم الرجال خبرة بالمسائل الجنسية وهما هفلوك أليس وسيحموند فرويد فهما يدعيان «بأن الحب يمكن أن يولد من الدافع الجنسي ثم يعود إليه».

في الحقيقة فإن الأمر أصعب من أن تدرك ما هو على وجه التحديد ولكننا سنقدم محاولتان للتفسير . الأولى صاحبها أحد عباقرة الفكر الإسلامي بل الفكر الإنساني كله وهو الإمام ابن حزم الأندلسي ، والثانية لأحد علماء علم النفس الجنسي وأحد زملاء أدلر وبوشلدر رفيقي فرويد المعروفين وهو العالم الطبيب أوسفلد شفارتس .

وعلى الرغم من أن كلاً منهما ينتمي لحضارة مفارقة للحضارة الأخرى ويفصل بينهما زمنيًا عدة قرون إلا أننا سنجد تشابهًا عجيبًا في أرائهما مما يغرينا بالاعتقاد أن كليهما قد اقترب من الحقيقة إلى درجة كبيرة .

وينبغي أن نشير إلى أننا سنركز اهتمامنا في تناولنا للموضوع على إبراز مدى التباين الكبير بين الحب والرغبة الجنسية .

يقول الإمام ابن حزم (٤٥٦ هـ) في كتابه طوق الحمامة :

« الحب ـ أعزّك الله ـ أوله هَزل وآخرة جِد . دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة . وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة إذ القلوب بيد الله عز وجل . وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير » [١] .

ويقول في موضع آخر :

« وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع ... وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الإتصال والإنفصال .

والشكل دأبا يستدعى شكله .

والمثل إلى مثله ساكن ...

والتنافر بين الأضداد .

والموافقة في الأنداد » [٢] .

أي وهو يقصد بذلك أن الشبيه يتجاذب إلى شبيهه ثم يوضح أنه لا يقصد بذلك المشابهة في الشكل أو الأخلاق ولكن في ذات النفس فيقول

---

(١) طوق الحمامة : ص ٦ .

(٢) المرجع السابق : ص ٧ .

مشيراً إلى كلامه السابق : « كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان وزوجه فيسكن إليها والله عز وجل يقول : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ فجعل علة السكون أنها منه [لاحظ جيداً مدى ما يستحقه هذا الإستدلال القرآني من تأمل] . ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة [أي لا يحب الإنسان الأقل منه جمالاً] ونحن نجد كثير ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا نجد متحيداً لقلبه عنه .

ولو كان للموافقة في الأخلاق : لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه [أي من لا يتوافق معه في الأخلاق والطبع] فعلمنا أنه شئ في ذات النفس [أي المشابهة في الجوهر الداخلي لنفس الإنسان] »[1] .

ثم يثير الإمام ابن حزم هذا التساؤل ويجيب عليه « فإن قال قائل : لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية ، إذ الجزآن مشتركان في الإتصال وحظهما واحد والجواب عن ذلك أن نقول : هذه لعمري معارضة صحيحة ، ولكن نفس الذي لا يحب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الأعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية [أي معزولة عن حقيقة جزئها الآخر بما يحيطها من متعلقات أرضية] فلم تحس بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي ولو تخلصت لاستويا في الإتصال والمحبة »[2] .

---

(١) المرجع السابق : ص ٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠ ، وما بين الأقواس الخاصة من كلام كاتب الكتاب .

ثم يقول في موضع آخر : « ومن الدليل على هذا أيضًا أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق الصفات الطبيعية لابد في هذا وإن قل . وكلما كثرت الأشباه [الصفات الشبيهة] زادت المجانسة وتأكدت المودة فانظر هذا تراه عيانًا وقول رسول الله ﷺ يؤكده : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها إئتلف وما تنافر منها أختلف » [١] .

[والحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داؤد والطبراني]

ولو توقف ابن حزم [٢] في نظريته عند حدود تفسير تعلق أرواح

---

(١) طوق الحمامة : ص ٩ ، ١٠ .

(٢) يتبنى الإمام ابن القيم نفس أراء الإمام ابن حزم في ماهية الحب ويكاد يكون مستخدمًا لنفس عباراته في كتابه الطب النبوي ، ص ٢٤٨ : طبعة مكتبة الحياة . وفي كتابه روضة المحبين ونزهة المشتاقين الذي خصصه لهذا الموضوع يقول : « قال أبو محمد بن حزم : قال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين إني رأيت امرأةً فعشقتها . فقال عمر : ذاك مما لا يُملك .. وقال المدائني : لام رجل رجلاً من أهل الهوى فقال : : لو صح لذي هوىً اختيارٌ لاختار أن لا يهوى . ويدل على ذلك من السنة (الكلام لابن القيم) ما رواه البخاري في صحيحه من قصة بريرة أن زوجها كان يمشي خلفها بعد فراقها له وقد صرت أجنبية منه ودموعه تسيل على خديه. فقال النبي ﷺ : يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثًا ؟ ثم قال لها: لو راجعتيه ، فقالت : أتأمرني ؟ فقال : إنما أنا شافع (أي أن الرسول ﷺ يتشفع له عندها) ، قالت : لا حاجة لي فيه » ولم ينهه عن عشقها في هذه الحال ، إذ ذلك شيء لا يملك ولا يدخل تحت الاختيار . وقال القاضي أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان النوقاتي في كتابه « محنة الظراف » : العشاق معذرون على الأحوال إذ العشق إنما دهاهم عن غير اختيار ...

المحبين بسبب المشابهة في ذوات نفوسهم لاستطاع أن يكسب الكثير من الإطمئنان إلى نظريته ولكان بذلك شديد القرب من النصوص التي يستدل بها أما حكاية أن الجزء كان متصلاً بالآخر قبل حلوله في عالم الأرض فهو أمر شديد الغموض ولم يقدم أدلة حاسمة عليه .

أما أوسفلد شفارتس فيفرق بين الجنس والحب فيقول [(١)] :

= وروى أبو السائب المخزومي ـ وكان من العلم والدين بمكان متعلقًا بأستار الكعبة وهو يقول : اللهم ارحم العاشقين وقو قلوبهم واعطف عليه قلوب المعشوقين . فقيل له في ذلك (أي سألوه كيف تقول مثل هذا الكلام) فقال: والله للدُّعاء لهم أفضل من عمرة من الجعرانه (موضع على سبعة أميال من مكة) . قالوا : وقد فسر كثير من السلف قوله تعالى : ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ بالعشق وهذا لم يريدوا به التخصيص وإنما أرادوا به التمثيل (أي أن العشق مثل لما لا طاقة لنا بحمله) وأن العشق من تحميل ما لا يطاق » . ا . هـ .

ثم يفرق ابن القيم بين العشق ذاته وبين مبادئه وأسبابه فيقول : « إن النظر والتفكر والتعرض للمحبة أمرٌ اختياري فإذا أتى بالأسباب كان ترتب المسبب عليها بغير اختياره [أي أنه لو جاء بشيء من ذلك فإ ما يترتب عنه بوقوع المحبة أمر لا خيار فيه] .. ولهذا إذا حصل العشق بسبب غير محظور لم يُلَمْ عليه صاحبه [أي أنه لو كانت الأسباب الأولى للعشق غير محرمة فإن وقوع العشق بعد ذلك لا يلام عليه صاحبه] .. على أن عليه مدافعته وصرفه عن قلبه بضده فإذا جاء أمر يغلبه فهناك لا يلام بعد ذلك الجهد في دفعه » ، ص ١٤٢ : ١٤٨ .

ويجب التنبيه إلى أن الذي يقصده أئمة المسلمين من كل هذا الحديث عن الحب هو مجرد الشعور الداخلي دون أن يكون ذلك ذريعة للبعض للوقوع في الآثام والمحرمات التي تقوم بها الجوارح .

(١) مواضع مختلفة من علم النفس الجنسي .

« ينتمي الدافع الجنسي إلى الناحية البيولوجية (العضوية) بينما ينتمي الحب إلى الناحية الشخصية من وجودنا . وهذا فرق لم نعترف به حتى الآن بصورة عامة بالرغم من أنه فرق أساسي . وقد أعاق تقدم البحث في هذا الميدان ـ لسوء الحظ ـ الرأي الذي قال به رجلان من أعظم الرجال خبرة بالمسائل الجنسية وهما هفلوك اليس وسيجموند فرويد . فهما يدعيان بأن الحب يمكن أن يولد من الدافع الجنسي ثم يعود إليه . ويجب أن نلاحظ ، على عكس هذه النظرية ، إن الدافع الجنسي يشبع رغبة فردية وأنه لهذا لا يتخطى الفرد الذي يشعر بهذه الحاجة ، بينما يخرج بنا الحب عن ذواتنا ليدفع بنا نحو كائن آخر . فمتى تم إشباع الغريزة كفت هذه الغريزة عن الإلحاح بينما الحب على العكس من ذلك لأنه ميل مستمر ولهذا فهو يوجد رابطة دائمة . ذلك لأن الحب ليس حالة ثابتة جامدة بل هو نشاط متجدد دائمًا . ولما كان الحب لا يسعى إلى امتلاك الآخر كما أنه لا يستطيع الاكتفاء بهذا الامتلاك فإنه نشاط يكتفي بذاته . ويتعارض إشباع الرغبة الجسدية مع ميل الحب المستمر . ولهذا فإن المضاجعة الجسدية الصرفة [أي العملية الجنسية البحتة بين شخصين لا تربط بينهما علاقة حب] لابد أن يتبعها إحساس بالتعب واللامبالاة والملل الذي ينشأ عن الشبع .

أما المحبان العاشقان فإنهما يشعران حين يستيقظان من نشوتهما [أي بعد انتهائهما من العملية الجنسية] إنهما قد تجددا وبُعثا من جديد فإذا بهما ينظر كل واحد منهما إلى الآخر وقد تملكتهما الدهشة كما لو إنهما كانا غريبين كل منهما عن الآخر .

فالدافع الجنسي دافع أعمى يحمل الذكر على الاتصال بالأنثى وهذا يعني أن أية امرأة يمكنها أن تتصل بأي رجل وأن أي رجل يمكنه الاتصال بأية امرأة . ويتم هذا الاتصال على الرغم من جهل كل منهما للآخر .

أما الحب فإنه يهب البصيرة إلى الرجال ويفتح أعيننا على الجوهر الحق وعلى القيم الشخصية الداخلية في الكائن المحبوب .

وبالرغم من أن الحب والدافع الجنسي يختلفان تمامًا في طبيعتهما فإنهما مرتبطان بعلاقة متبادلة تجعل كل منهما يتعلق بالآخر ويتممه .

فإذا كان لابد من أدلة على ذلك أمدنا علم الأمراض الجنسية بعدد من الأدلة المقنعة . فالاضطراب الجنسي الأكثر انتشاراً عند الرجال هو العجز عن انتصاب العضو الجنسي .

وليس لهذه الظاهرة أية صلة بنقص في تكون هذا العضو بل هي نتيجة لبعض العقد التي لا نعيها تمامًا والتي تحول دون قيام الأعضاء التناسلية بوظيفتها بانتظام .

ولهذا كان لابد للرجل البالغ السوي ـ الذي يعرف عن طريق التجربة البيولوجية اتحاد كل من الروح والجسد ـ أن يؤدي به الأمر ـ وبسبب معرفته لهذا الكمال في الاتحاد ـ إلى الفشل إذا ما استسلم لعلاقات جنسية خالية من الحب وانحط إلى انتهاج مسلك جسدي صرف ليس له أي صدى انفعالي . ذلك لأن العملية الجنسية هي الوظيفة الوحيدة التي لا تكذب لأننا مضطرون لأن نكون « صادقين » في حياتنا الجنسية ولو كان ذلك بالرغم عنا .

ويذهب شفارتس إلى أنه من الممكن أن تقوم هناك علاقة حب بين ذكر وأنثى تكون خالية من الجنس وعلى الرغم من أقتناعنا بالتباين الشديد بين الحب والجنس إلا أننا لانستطيع تصور خلو الحب - ذى المعنى الشائع المرتبط بالعشق - من الجنس لأن هذا الحب يعنى جنوح الإنسان بكل كينونته الإنسانية نحو أمرأة معينة وهو أمر يدخل فيه الجنس بلا شك ؛ وإن كان الدافع الجنسى لا يمثل أرقا كبيراً لدى العاشق بالنسبة للمشاعر الأخرى التى ترتبط بمدى الإنسجام النفسى بين العاشقين . أما إذا خلى الحب من الجنس تماماً فإن ذلك يدخل فى باب المودة التى من الممكن تصور وجودها بين الإنسان وأى شخص آخر سواء كان من جنسه أو من الجنس الآخر وهذا موضوع يخرج عن نطاق موضوع الحب المرتبط بالعشق الذى نتناوله هنا .

ومن الممكن أن يقال فى هذا السياق المراد به التفرقة بين الحب والجنس أن الشخص المراد بالجنس تنتهى الرغبة فيه بقضاء الوتر منه وهو الأمر الذى يتعداه الحب تماماً والأمثلة المشاهدة من الواقع خير دليل على ذلك . ومن الأمثلة التاريخية التى يمكن ضربها على ذلك أن القائد الرومانى الكبير أنطونيو على الرغم من زواجه من كليوباترا ملكة مصر لسنين طويلة إلا أنه فقد اتزانه تماماً عندما علم برحيلها عنه فى معركته مع القادة الرومان (وكانت قد اعتقدت بموته) فإذا به يمضى وراءها زاهلا عن كل شىء فاقداً بذلك أمبراطورية كاملة كانت تحكم أغلب العالم القديم هى الإمبراطورية الرومانية مما جعل المؤرخ الرومانى بلوتارك يعلق على ذلك قائلاً : أن ارواح العشاق تسكن فى أجساد من يعشقون .

وفى تاريخنا العربى تطالعنا قصة قيس بن ذريح وهو غير قيس بن

الملوح الشهير بالمجنون بنفس الأمر فبعد زواجه من لبنى وتمتعه بها دب الخلاف بين والديه حتى أصر الأخيران على تطليقة لها ووقف الأب تحت الشمس معلناً أنه لن يرحل حتى يطلق ابنه امرأته وبعد أن استسلم قيس فى النهاية لذلك ورحلت هى عنه طار عقله وراءها .

ومن الواضح جداً أن كل هذه الأمور لا علاقة لها بالجنس كرغبة تنتهى بقضاء الوتر من الشخص المرغوب فيه .

محددات النفس الانسانية
والتفاعل بين القوى والدوافع المختلفة
وآثره على السلوك

محددات النفس الإنسانية

في الحقيقة إن للنفس الإنسانية ميل فطري نحو الخير . وهذا أصل النظرية الإسلامية في الطبيعة الفطرية للنفس الإنسانية .

ولكن من أبسط معاني الخير توزيع خيرات العالم بين الناس بشكل عادل وهو أمر يتناقض مع الرغبات شبه المطلقة للنفس الإنسانية .

فالنفس الإنسانية في فترة نموها الأولى تكاد ترغب في الحصول على كل ما تريد وهي تحب القيم الخيرية التي تستطيع أن تعيها ولكنها تعي أن إمتثالها لهذه القيم يعني قبولها لتقييد هذا الإطلاق في رغباتها .

ولذلك ينشأ الصراع داخل النفس الإنسانية وبين مدى تمسكها بهذه القيم وبين تمسكها بتحقيق رغباتها . فإذا ضحت النفس الإنسانية بتحقيق جزء من رغباتها في سبيل امتثالها لبعض القيم الخيرية وتكررت نفس النتيجة في نفس الصراع فإن ذلك يترسب عنه ترسيخ هذا الجزء من القيم المنتصرة داخل النفس الإنسانية حتى يصبح جزءاً من مكوناتها .

أما إذا تمسكت النفس الإنسانية بتحقيق هذه الرغبات على حساب تمسكها بهذه القيم الخيرية وتكرر حدوث ذلك نشأ لديها الإستعداد لقبول هذه القيم الشرية بعد ذلك وضعف لديها الإستعداد للتمسك بهذه القيم الخيرية .

وتتدخل عوامل كثيرة في حسم النتائج التي يؤدي إليها هذا الصراع مثل البيئة والاستقرار الأسري والتعليم ووجود أو افتقاد القدرة التي ترتبط بها النفس الإنسانية في نشأتها ارتباطًا كبيراً .

وفي مرحلة أكثر تقدمًا من هذه المرحلة تتراكم مجموعات القيم المنتصرة داخل النفس الإنسانية ومن الممكن تشبيه تواجد تلك القيم داخل النفس الإنسانية بمجموعات من القوارب داخل بحيرة كبيرة بحيث تتباين هذه القوارب فيما بينها من حيث الحجم ومن حيث مدى قوة مثبتاتها بقاع البحيرة .

وفي هذه المرحلة الأكثر وعيًا يتحول الاستعداد لقبول القيم الشرية من مجرد استعداد إلى تراكم حقيقي لمجموعات من القيم الشرية الناتجة عن انتصار التفاعل بين ميل النفس إلى تحقيق رغباتها اللاشرعية مع القيم الشرية الخارجية على ميل النفس إلى تمسكها بالقيم الخيرية .

ونفس الأمر يكون بالنسبة لهذه القيم الشرية فيكون تواجدها داخل النفس الإنسانية أشبه ما يكون بمجموعات من القوارب داخل بحيرة كبيرة تتباين فيما بينها من حيث الحجم ومن حيث قوة مثبتاتها بقاع البحيرة .

والذي أقصده بهذا الوصف أن مجموعات هذه القيم الخيرية أو الشرية لا تتساوى فيما بينها من حيث درجة تواجدها داخل النفس الإنسانية أو من حيث مدى ارتباط النفس بها وهو ما يعني أيضًا قابلية هذه القيم للخروج من النفس الإنسانية أو لزيادة درجة التواجد والثبات فيها بحسب درجة التواجد وبحسب مدى قوة الارتباط داخل النفس وبحسب الظروف الأخرى المتفاعلة معها كمدى ضغوط الرغبات الجديدة والقيم الخارجية وقبل كل ذلك يكون الفيصل النهائي لكل هذا في اتجاه الخيارات الجديدة للإنسان والمتعلقة بحرية إرادته .

ومثال ذلك القيم الحافزة للنفس على عدم الزنا لا يشترط أن تتساوى من حيث درجة التواجد أو قوة الارتباط داخل النفس مع القيم الحافزة على عدم اكتساب المال الحرام .

وهذه القيم الأخيرة مثلاً تكون قابلة للخروج من النفس الإنسانية أو لزيادة التواجد والثبات فيها بحسب درجة تواجدها وقوة ارتباطها داخلها وبحسب مدى تفاعلها مع الظروف الجديدة مثل زيادة ضغوط الرغبات الجديدة التي تحثها الدعوات الاجتماعية على زيادة الاستهلاك وراء الأموال وإغراءات قيم جديدة كالقيم البراجماتية النفعية الأمريكية التي يُروج لها في مجتمعنا الآن ويكون الفيصل النهائي لكل هذا في اتجاه الخيارات الجديدة للإنسان المتعلقة بحرية إرادته ومدى مواقفها الجديدة من حيث الاستعداد للتضحية بتلبية الرغبات الضاغطة في سبيل حفاظها على القيم الخيرية المكتسبة لديها أو في سبيل اكتسابها لقيم خيرية جديدة أو العكس .. أي من حيث استعدادها للتضحية بهذه القيم في سبيل تلبيتها لهذه الرغبات .

محور أساسي للنظرية الإسلامية :

وأريد أن أبرز هنا محور أساسي للنظرية الإسلامية تتميز به عن نظريات علم النفس الغربي وهذا المحور هو أن عمليات الصراع بين القيم الخيرية والشرية وخروجها ودخولها لا تتم بشكل آلي ميكانيكي بحيث لو توافرت الظروف الضاغطة على تغليب اتجاه النفس إلى الانحياز إلى القيم الشرية دون الخيرية لفعلت ذلك بشكل حتمي .

لا .. إن النظرية الإسلامية تنكر هذا تماماً ونستشهد على ذلك بالكثير من التجارب الواقعية التي يعايشها الكثير من الناس لأن

النظرية الإسلامية تحدد منذ البدء أن النفس الإنسانية تملك حرية الاختيار وأن هذه الحرية لها الحكم النهائي في حسم كل هذه الأمور .

وكثيراً ما تتوافر الظروف الضاغطة على النفوس لتغليب القيم الشرية على القيم الخيرية وذلك بجعل التضحية بالرغبات المستهدفة عظيمًا ومع ذلك تختار هذه النفوس هذه التضحية العظيمة والتي قد تكون لم تضح برغبات مثلها من قبل أو حتى برغبات تقترب في قوتها منها .

وهذا لا يعني إلا أمر واحد ولا يعلن إلا عن حقيقة واحدة وهي وجود الروح الحاكمة للنفس الإنسانية قبل كل شئ والتي لا تستطيع كل المفاهيم والأفكار الإنسانية أن تستشف أسرارها وهي الحقيقة التي قال عنها القرآن : ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ .

والحصيلة الناتجة عن هذا الكلام هي أن التركيب الداخلي للنفس الإنسانية في صورتها العملية يتكون بشكل أساسي من ثلاث محددات :

* نشاط إنساني منتج للرغبات .

* وقيم خيرية مترسبة عن تراكم انتصارات تفاعل الميل الفطري الإنساني للخير مع القيم الخيرية الخارجة على تعلق النفس بالرغبات التي يتناقض تحقيقها مع امتثالها لهذه القيم .

* وقيم شرية مترسبة عن انتصارات التفاعل بين ميل النفس إلى تحقيق رغباتها مع القيم الشرية الخارجية على ميل النفس إلى تمسكها بالقيم الخيرية .

التفاعل بين القوى والدوافع المختلفة داخل النفس وأثره على السلوك الإنساني (١)

تستطيع الآن آن تضف ما يمكن وصفه (٢) عن حركة السلوك الإنساني لشخص عادي متوسط العمر كالآتي :

هناك نفس مختارة واعية تحتوي على مجموعتين من القيم : القيم الخيرية والقيم الشرية تتقاربان أو تتباعدان من حيث درجة الوجود أو قوة الارتباط داخلها كما تحتوي أيضًا على إفراز دائم للرغبات المختلفة .

ولأن السلوك الإنساني يسعى دائمًا لتحقيق رغبات النفس فإن الصراع بين القوى والدوافع المختلفة لتحقيق أو عدم تحقيق هذه الرغبات يكون لها القيومية الأساسية على حركة نشاطها ويتأثر هذا الصراع تأثيراً أساسيًا بالظروف المختلفة المحيطة به واتجاه الرغبات المتحددة على الدوام .

* فإذا كانت الرغبة مشروعة وممكنة (أي يمكن تحقيقها) تم تنفيذها دون أن يكون لذلك أثراً بينًا على التركيب الداخلي للنفس الراغبة .

* أما إذا كانت الرغبة غير مشروعة واختارت النفس التضحية بها من أجل احتفاظها بالقيم الخيرية التي لديها ، فلا تنفذها وتكون

---

(١) وهو ما يسمى بدينامية السلوك الإنساني .

(٢) لأن النظرية الإسلامية تقرر أن هناك ما هو مجهول دائمًا ولا يمكن إدراكه في فهم هذا السلوك

النتيجة أن تزداد قوة هذه القيم داخل النفس الإنسانية وقد يكون هذا لرغبة النفس في اكتساب قيم خيرية جديدة أي أن انتصار النفس على رغباتها غير المشروعة يؤدي إلى المزيد من الانتصار وهو الأمر الذي يعنيه جهاد النفس وكيف يؤدي إلى زيادة الإيمان في الإسلام .

* وعكس ذلك يقال بالنسبة لاختيار النفس لتلبية رغبتها غير المشروعة فإن ذلك يؤدي إلى زيادة قوة القيم الشرية داخل النفس أو لزيادة اكتسابها لقيم شرية جديدة .

* ولكن مشكلة المشاكل في الرغبة غير الممكنة (أي التي لا يمكن تحقيقها واقعيًا خصوصًا إذا كانت هذه الرغبة شديدة القوة) فإذا حدث ذلك في نفس قوية بالمفهوم الإسلامي أي تحتوي داخلها على قيم خيرية شديدة القوة والثبات إلى درجة كبيرة فإن ذلك سوف يؤدي إلى إصابة هذه النفس بآلام شديدة دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير الوضع القيمي الداخلي وإن كان ذلك سيؤثر على الجهاز العصبي بدرجات متفاوتة لا تصل إلى درجة الإصابة بالمرض العصابي .

أما إذا حدث ذلك في نفس لا تحمل في داخلها على قيم خيرية شديدة القوة والثبات فإن ذلك يؤدي إلى إصابة النفس بالمرض العصابي وعلى ذلك يمكن تقسيم (أي المرض بأمراض عصبية) إلى عصابي بالميلاد وهو الشخص الذي يولد وجهازه العصبي ضعيف وتتكشف حالة هذا الشخص بضغوط غير قوية جداً (من حيث عدم القدرة على تحقيق الرغبات واقعيًا) . وعصابي بعد الميلاد وهو الشخص الذي يولد وجهازه

العصبي طبيعي ولكن يصاب بالمرض العصابي تحت ضغط آلام شديدة جداً ناتجة عن عدم قدرته على تحقيق رغبات تمثل بالنسبة له معاني وجوده . ويدخل في ذلك أمراض الهستيريا والوسواس القهري والاكتئاب العصابي [1] .

ولكن قد يحدث أمر آخر يستطيع به الإنسان حماية نفسه من الإصابة بهذه الآلام الشديدة وهو الالتجاء إلى الأوهام وذلك بتفريغ هذه الطاقة الشديدة المصحوبة بها الرغبات المسلحة في صنع أوهام يجعل منها حلاً بديلاً يمكن تحقيقه عوضًا عن الرغبات شديدة الالحاح التي لم يستطع تحقيقها وبذلك تقع الإصابة في التفكير العقلي فيتطرف الإنسان في الأفكار الموهومة تطرفًا شديداً ويتناقض بذلك تناقضًا بينًا مع الواقع الذي يعيشه وهو ما يسمى بالمريض الذهاني (نسبة إلى إصابة الذهن) ويدخل في ذلك أمراض البارانويا والفصام والاكتئاب الذهاني [2] .

* * *

---

(١) راجع :

١ ـ الصحة النفسية .

٢ ـ ميادين علم النفس .

٣ ـ المرجع في علم النفس : د. سعد جلال .

مـاهى الشخصية القـويـة

ما هي الشخصية القوية

نستطيع الآن أن نتحدث عن مفهوم الشخصية القوية في الإسلام ومن ثَمَّ عن وسائلنا في صنعها واقعيًا .

ولكن قبل أن نتطرق إلى ذلك لابد أن نتحدث عن مفهوم الشخصية القوية بوجه عام وسوف نحتكم في ذلك (وهو ما سنفعله في كثير من الأمور التي تثير جدلاً كبيراً في عالم النفس) إلى خبرات القاريء الواقعية .

ما هي الشخصية القوية ؟

هل هي الشخصية التي تربح دائمًا ؟

هل هي الشخصية التي تصل إلى ما تريد بشتى الوسائل ؟

هل هي الشخصية التي تميل إلى الخير ؟

هل هي الشخصية التي تميل إلى الشر ؟

هل هي الشخصية التي تقود ؟

هل هي الشخصية التي تصر على ما تريد مهما كانت الخسائر ؟

هل هي الشخصية العنيفة ؟

هل هي الشخصية الهادئة ؟

نستطيع أن نثبت ـ لو أردنا الإطناب ـ من خلال تجاربنا الواقعية أن أي سمة من السمات السابقة لا تستطيع أن تحدد لنا ما هي الشخصية القوية .

ولكن هناك أمر أساسي يستطيع أن يحدد لنا الشخصية القوية وهو القدرة على اتخاذ القرار لأن هذا يعني قدرة النفس على التحكم في اتخاذ قرارتها أي سيطرتها الدائمة على توجيه سلوكها إلى ما تريد تحقيقه دون أن يرتبط ذلك بتحقيق المكاسب أو الخسائر .

قد يخسر الإنسان أشياء نتيجة اتخاذه لموقف معين ولكن مع ذلك تكون مكاسبه أكبر وهي تتمثل في تدعيم قوة تحكمه في اتخاذ قراره .

ونحن نخصص في هذا الكتاب فصلاً كاملاً عن مدى الأهمية العظمى لحرية الإرادة في الإسلام ، ويحضرنا الآن تلك المقولة التي تنسب للسيد المسيح عليه السلام : « ماذا لو كسب الإنسان العالم وخسر نفسه ؟ » .

إبنان لرجل ثري هذا يتحكم والده في توجيه مسار حياته تمامًا ويغدق عليه الأموال في مقابل ذلك وهذا اختار أن يملك زمام نفسه في توجيه مسار حياته حتى ولو أدى ذلك إلى ألا ينال من ثروة أبيه إلا الفتات . أيهما الأقوى شخصية .

هذه فتاة قذفت بها أمها في بوتقة رجل ثري لا خلق له وآثرت السلامة كي تنجو من بطش أمها بها وتعريضها لما يجرح شخصيتها وعاشت في ترف من النعيم ورغد العيش دون أن يفترق وجودها عن وجود أي قطعة أساس من أملاك هذا الرجل الثري ، وهذه أخرى أختارت ألا تتزوج إلا من تريد وارتضت في سبيل ذلك أن تجذب من رأسها وتسحل على الأرض . أيهما الأقوى شخصية هل التي حافظت على (برستيجها) وضحت بحرية إرادتها . ومن ثمّ خسرت حياتها أم التي

تشبثت بحرية إرادتها وارتضت في سبيل ذلك التضحية (ببرستيجها) وتحمل آلام المهانة والضرب ؟ .

لا شك أن الشخصية الأقوى هي الشخصية التي حافظت على حرية قرارها .

والخلاصة من كل ما سبق أن المفهوم العام للشخصية القوية أنها الشخصية التي تتحكم في اتخاذ قرارها أيًا كان اتجاهه .

وعلى ذلك فقد تكون هذه الشخصية خيرة إذا كان اتجاه قرارتها يتجه عادة إلى الخير أو شريرة إذا كان اتجاه قرارتها يتجه عادة للشر .

ولكننا لابد أن نضع معياراً معينًا للشخصية القوية التي تنطلق من التصور الإسلامي .

قلنا فيما سبق أن وجود قيم خيرية شديدة القوة والثبات داخل النفس الإنسانية يجعل تحكم النفس في رغباتها شديد القوة داخل النفس الإنسانية . فلو أضفنا إلى ذلك أن تثبيت الإنسان بالحفاظ على حريته في اتخاذ قراراته يمثل بذاته قيمة خيرية عظمى من المنظور الإسلامي لانتهينا إلى النتيجة الآتية :

أن الشخصية القوية من المنظور الإسلامي هي الشخصية التي تملك القدرة على التحكم في اتخاذ قرارتها والحفاظ على حرية إرادتها وهي لن تملك هذه القدرة إلا إذا كانت تملك القدرة على التضحية برغباتها المادية والإستعلائية وتحتوى داخلها على قيم خيرية شديدة القوة والثبات .

وعلى ذلك يكون منهاجنا في بناء هذه الشخصية يقوم على تدعيم مبدأ حرية الإرادة [١] كقيمة إسلامية عظمى وباعتبارها الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . فكيف يهون لديه التفريط فيها ؟!!!!

وعلى تقوية النفس الإنسانية بتثبيت أكبر قدر من القيم الخيرية التي تنطلق من المنظور الإسلامي داخلها .

وعملية البناء هذه ليست بالأمر السهل أو الهين وإنما هي تتم بإعداد طويل وجهاد طويل على حمل القيم الإيمانية ومواجهة الواقع بها بل وعلى العمل على التحكم فيه وتوجيهه .

وسوف نتناول الكثير من المواد التي تدخل في عملية البناء هذه في الفصول القادمة بإذن الله .

* * *

(١) راجع فصلي حرية الإرادة والقضاء والقدر في الكتاب .

القسم الثانى

المنهج الإسلامى فى بناء الشخصية القوية

هذا المنهج

يقوم هذا المنهج على تحرير إرادة الإنسان وإرساء ركائز القوة الإيجابية فيه وإدراكه بالوعى الإيجابى الحقيقى فى مواجهة الوعى الزائف المشاع وإرساء قيم المواجهة داخله وقد قصدنا أن لانضع هذا المنهج فى صيغة أكاديمية لاينسجم أسلوبها اللامع الأكاديميين إنما قصدنا أن نوجه حديثنا إلى القارىء المقصود مباشرة بلغة تحفيزية تساعده على الاستجابة لما ندعوه إليه .

أولاً

حـــرية الإرادة

١ - التفريط فى حرية الإرادة

خيانة للأمانة التى حملها الله للإنسان

التفريط في الإرادة
خيانة لله سبحانه وتعالى

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولاً ﴾ .

ما هي أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية ؟ .

عند الدكتور الحمصي (مفردات القرآن تفسير وبيان) .

العقل المفكر وحرية الأرادة .

وفي تفسير الإمام البيضاوي « ولما خلق الله هذه الأجرام قال لها إني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعني فيها وناراً لمن عصاني . فقلن : نحن مسخرات على ما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغي ثوابًا ولا عقابًا ولما خلق آدم عرض عليه مثل ذلك فحمله فكان ظلومًا لنفسه بتحمله ما يشق عليها جهولاً بوخامة عاقبته ولعل المراد بالأمانة العقل والتكليف .

وفي تفسير الإمام إبن كثير :

« قال ابن عباس : يعني بالأمانة الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذها بما فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت فأخذها آدم فحملها » .

وبعدما عرض الإمام إبن كثير عدة أقوال لمجاهد والضحاك والحسن البصري وأبي بن كعب وقتادة وزيد ابن مسلم مثل كونها الفرائض أو الطاعة أو الدين والفرائض والحدود قال : « وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها بل هي متفقه وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر .

وفي المصحف الميسر (تفسير الشيخ عبد الجليل عيسى) :

« الأمانة المراد بها هنا : الصفات التي ميز الله بها الإنسان عن غيره وكانت منشأ تكليفه بالطاعات ليتميز من يشكره عليها فلا يستعملها إلا فيما يرضى الله وهذه الصفات هي مجموع العقل المفكر المستنتج وحرية الإرادة » ا . هـ .

والذي نستخلصه من كل هذه الأقوال إن مناط التكليف هو كل القوى المفكرة لدى الإنسان والتي يتميز بها عن غيره من المخلوقات ولكن أين يتحدد أساسًا مناط المسئولية على هذا التكليف بين هذه القوى .

إنه يتحدد أساسًا على الإرادة فحرية الإرادة لدى الإنسان هي مناط مسئوليته أمام الله رب العالمين .

إذن فحرية الإرادة هي المحور الجوهري في الأمانة الذي من أجله أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها إنها أخطر شئ في هذا الوجود يحمله الإنسان إنها الشئ الذي على أساسه إنتظمت مسيرة الوجود من حياة لموت لحياة لثواب وعقاب وجنة ونار فكيف يفرط الإنسان في هذا الشئ ؟!

كيف يفرط الإنسان في حرية إرادته ، ما الذي يجعله يساق كالشياة للذبح أو حتى للكلأ الوفير ؟!؟!..

كيف يرتضي الإنسان التفريط في إرادته وهل هناك شئ في الوجود يستحق أن يفعل ذلك من أجله .؟!؟!..

من أجل ماذا ؟! من أجل من ؟!

نعم الصالحون يشترون آخرتهم بدنياهم والطالحون يشترون دنياهم بآخرتهم .

أما المساقون التبعاء الذين يفرطون في إرادتهم فإنهم يهدرون دينهم ودنياهم معًا بماذا ؟

باللاشئ !!!!! ...

وفي هذا قال القدماء : أكثر الناس غرمًا من يبيع آخراه بدنيا غيره والذين فرطوا في إرادتهم وإنساقوا وراء غيرهم فقد أضاعوا آخرتهم ولم يصيبوا دنياهم وإنما الذي أصابها هم هؤلاء الذين إنساقوا ورائهم .

هل يكون هذا حقيقيًا الذي يبرر به البعض موقفهم أنهم يضحون بإرادتهم من أجل إنقاذ الآخرين ؟

فإذا كانت حرية الإرادة هي المحور الجوهري في الأمانة التي حمّلها الله للإنسان أفلا يكون المفرط في إرادته خائنًا لله سبحانه وتعالى ؟ وأي ضلال هذا ؟

هل من الممكن أن يكون الضلال سبيلاً لإنقاذ الآخرين ؟!

إن الله لم يطلب أبداً من الإنسان التفريط في إرادته في سبيل أي شئ في هذا الوجود . إنها الأمانة التي حمله على أساسها مسئوليته في الحياة الدنيا ، فهل من الممكن أن تكون هناك مثالية تغضب الله وترتضي طريق الشيطان ؟ أم أن ذلك مجرد إدعاء يدعيه الضعفاء لتبرير ضعفهم .

وما تلك المكاسب التي من الممكن أن أسديها للآخرين والتي يمكنها أن تكافئ تلك الخسائر التي تصيبهم بتقديمي القدوة لهم في خيانة أمانة الله بتفريطي في حرية إرادتي ؟! .

ما المكاسب التي من الممكن أن أسديها للآخرين التي من الممكن أن تكافئ تقديم نفسي لهم كنموذج رائع للشخصية الضعيفة السلبية عديمة الإرادة .

أيها الإنسان يا سيد المخلوقات :

لقد حملك الله الأمانة التي أبت أن تحملها السموات والأرض والجبال وأشفقن منها وارتضيت حملها فإذا أردت أن تخسر دنياك وآخرتك من أجل دنيا يصيبها الطواغيت الذين ترهبهم وتتخاذل أمامهم ففرط في إرادتك ثم لا تلومن إلا نفسك .

* * *

٢ - القضاء والقدر
وحرية الإرادة

القضاء والقدر وحرية الإرادة

الإيمان بالقضاء والقدر في الإسلام هل هو مصدر قوة أم مصدر ضعف ؟

الحقيقة التي لا شك فيها أن الإيمان بالقضاء والقدر في الإسلام هو معين لا ينضب لاكتساب الإنسان القوة الفولاذية التي يستطيع بها مواجهة الدنيا وما فيها من المصائب والشدائد والإبتلاءات ومع ذلك فقد اختزلته المفاهيم المشاعة المتوارثة عن العقائد والفلسفات الإتكالية القديمة إلى مجموعة من المفاهيم التي تنحي بالإنسان إلى السكون والضعف والدعة والإتكالية والسلبية والرضوخ للأمر الواقع بدلاً من أن تدفعه إلى العمل والقوة والتحدي والتصميم والمواجهة كما هي حقيقة الإيمان الصحيح بهذه العقيدة في الإسلام .

* * *

علم الله ومصير الإنسان

ولنبدأ بهذه القضية :

يقولون إنه إذا كان الله جل وعلا هو علام الغيوب وإذا كانت مصائرنا وأعمالنا مكتوبة لديه وعلم الله سبحانه وتعالى يجل عن الخطأ ومادام مكتوبًا فلابد أن ينفذ . فما فائدة العمل إذن ؟ وما فائدة الأخذ بالأسباب أو السعي إلى الأهداف أو اتخاذ المحاذير مادام لن ينفذ في النهاية إلا ما كتبه الله علينا ؟

نقول : إن البعض يهوي الإعتقاد بهذا التلبيس الشيطاني ليبرر سلبيته واتكاليته لأن قضية علم الله بما يحدث أو نفعل ليس لها علاقة بالتدخل في توجيه أفعالنا أو إحباط إرادتنا .

والمثل الذي يضرب على ذلك شديد الوضوح ـ ولله المثل الأعلى : هب إنك تقوم بالتدريس لبعض الطلبة فمن الطبيعي أن خبرتك الطويلة في التدريس معهم ومع غيرهم تجعلك إلى حد كبير تستطيع أن تتحتمل الدرجات التي سوف يمكنهم الحصول عليها عند دخولهم الإمتحان .

هب أن صديقًا لك تحداك في ذلك فسجلت له توقعاتك تلك في ورقة مكتوبة وجاءت النتائج إلى حد كبيرمقاربة إلى هذه التوقعات .

فهل أنت تدخلت بما فعلته في سلوك أي منهم عند إدائه للإمتحان ؟

هل يستطيع أحدهم أن يتحجج بك ويقول إن توقعات الأستاذ هي التي حددت لنا النتيجة ونحن لا إرادة لنا في ذلك ؟! طبعًا لا يستطيع .

هذا مع الفارق العظيم أنك سجلت توقعاتك بعلمك المحدود ولذلك فسوف تتطابق مع النتائج بشكل متقارب أما علم الله اللامحدود الذي لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا السماء فلن يحدث في الدنيا شيء يخالفه فهذا أمر لا يجوز في حق الله المتصف بالكمال سبحانه وتعالى .

* * *

مشيئة الله ومشيئة الإنسان

إن تساؤل الإنسان حول مدى حريته في هذا العالم ومدى ما يتمتع به من قدرة وحرية اختيار أمام القضاء والقدر يجعله يطرح دائمًا هذا السؤال المصيري :

ما هي المشيئة التي تقرر السلوك الإنساني : هل المشيئة الإلهية هي التي تقرر هذا السلوك الإنساني بشكل حتمي ومن هنا تنتفي الإرادة الإنسانية وتنعدم الحكمة من التكليف والثواب والعقاب ؟ أم أن مشيئة الإنسان لها الحرية المطلقة في هذا الوجود ومن ثَمَّ يثور التساؤل عن معنى المشيئة الإلهية ؟

في الحقيقة فإن الآيات التي وردت في القرآن الكريم قد قررت المشيئة الإنسانية للإنسان في تقرير أفعاله في نفس الوقت الذي ربطت فيه هذه المشيئة بالمشيئة الإلهية كما جاء في قوله تعالى :

﴿ كلا إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ [المدثر : الآية ٥٤ : ٥٦] .

وقوله تعالى :

﴿ إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ، وما تشاءُون إلا أن يشاء الله ، أن الله كان عليمًا حكيمًا ﴾ [الكهف : الآية ٢٩ : ٣٠]

فهذه الآيات تقرر الحقيقتين التاليتين :

١ - أن كل عبد مرهون اختياره لأفعاله بمشيئته وعلى ذلك يكون ترتيب مسئوليته عن ذلك الإختيار هو تحقيق لعدل الله سبحانه وتعالى.

٢ - أن هذه المشيئة التي يشاءها الإنسان مشروط تحقيقها قبل كل شيء بتحقق المشيئة الإلهية أولاً أي أن المشيئة الإنسانية لا تستيطع أن تتحرك إلا إذا منحتها المشيئة الإلهية هذا الحق في التحرك أي أن المشيئة الإنسانية تتحرك في النطاق الذي تمنحه لها المشيئة الإلهية ، ويمكن تفسير ذلك كالتالي :

إنه قبل أن يصدر الفعل أو يحدد الإنسان السلوك الذي يختاره فإنه يسبق ذلك أولاً الإرادة الإلهية .

فالإرادة الإلهية هي التي تمنح الإنسان إمكانية صدور الفعل ومعنى إمكانية صدور الفعل هو أن يهيء الله للإنسان الظروف والوسائل التامة التي يمكنه من خلالها إصدار الفعل أو عدم إصداره .

فإرادة الله هي التي تهيء للإنسان هذه الإمكانية فلا يستطيع الإنسان أن يصدر أي فعل إلا إذا ملك هذه الإمكانية وعلى ذلك فإن *الله إذا هيأ* للإنسان هذه الإمكانية فإن أي فعل يصدره يكون ناتجًا عن *الإرادة الإلهية أولاً أيًا كان هذا الفعل خيراً أم شراً* لأنه لو لم يكن الله قد

شاء منح الإنسان هذه الإمكانية ما كان ليستطيع أن يصدر أي فعل وبذلك لا يكون أي فعل يصدره الإنسان إلا ناتج عن هذه الإرادة الإلهية ولا يستطيع أن يخرج عنها .

وبقول آخر : فلو لم يشأ الله أن يمنح الإنسان هذه الإمكانية لصدور الفعل ما كان ليملك أن يصدر أي فعل حيث لا يكون هناك مجالاً أصلاً لذلك .

وعلى هذا لا يكون أي فعل يصدره الإنسان إلا بإرادة الله ومشيئته أولاً ثم تأتي بعد ذلك إرادة الإنسان ومشيئته .

وهذه الإمكانية من الظروف والوسائل التي يمنحها الله للإنسان أمام أمر معين لا تحتم على الإنسان إصدار أي فعل معين أو أي سلوك خاص من خير أو شر .

بل يكون أمامه بعد أن ملك هذه الإمكانية أن يصدرأي فعل في أي اتجاه وبذلك فهو يملك الإرادة التامة في أن يختار السلوك الذي يريده والفعل الذي يشاءه لأن هذه الإمكانية التي وهبه الله إياها لا تدخل في إختياره لهذا الفعل أو ذاك .

ويكون الإنسان بذلك حراً مختاراً في صدور أفعاله ومن ثَمّ تترتب مسئوليته عن صدور هذه الأفعال ويكون حساب الله له على ذلك هو العدل المطلق الذي وصف الله به ذاته جلت حكمته وقدرته .

ولتوضيح ما سبق نضرب المثل التالي :

فلنفترض أن هناك أحد الأشخاص أمام اختبار للزنا ، فلكي يكون هذا الشخص أمام اختبار حقيقي للزنا فلا بد أن تتوافر له إمكانية تحقيق الفعل أصلاً حتى يكون هناك مجالاً لاختيار الزنا أو عدم اختياره .

فهناك المرأة المغرية اللعوب والإختفاء عن عيون الناس والبعد عن العواقب وتوافر القدرة الجنسية لفعل ذلك وغير هذا من الظروف التي تدخل في إطار هذه الإمكانية .

فإذا لم يمنح الله الشخص هذه الإمكانية ما كان يمكنه أن يختار أن يفعل الزنا أو لا يفعل وإذا منحه الله هذه الإمكانية فإن أي فعل يصدره من الزنا أو الإبتعاد عن الزنا ما كان ليكون إلا بعد أن توافرت الإرادة الإلهية أولاً أي أنه لم يكن يملك هذه المشيئة إلا بعد أن يشاء الله ذلك أولاً . ثم يأتي دور الإنسان بعد أن ملكه الله هذه الإمكانية .

ولا يعني مجرد ملك الإنسان لهذه الإمكانية أنه قد أجبر على الزنا ولكنه منح القدرة فقط على اختيار الزنا أو عدم الزنا ولاتزال له الحرية التامة في هذا الاختيار . فإذا زنى كان ذلك نتيجة لاختياره وإرادته دون أن يجبره أحد على ذلك ، وإذا لم يزن كان ذلك نتيجة لاختياره وإرادته أيضاً ودون أن يجبره أحد على ذلك وهو في كلتا الحالتين ما كان ليستطيع أن يقرر اختياره لو لم يكن الله عز وجل قد شاء له ذلك أولاً .

* * *

القدر أو (النصيب) بين ما تم فعلاً وما سيتم

يقول الإمام الشافعي في كتابه المأثور عن التوحيد (الفقه الأكبر) :

« واعلموا أن ما شاء الله (كونه) لا محالة (يكون) وما شاء الله أن (لا يكون) فمحال (كونه) ولا يجوز أن يجرى إلا ما يريد .

ثم يذكر من الأدلة على ذلك : أطباق المسلمين على القول بأن (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن) ا . هـ .

ولقد بنيت على هذه المقولة التي ذكرها الإمام الشافعي مقولة أخرى ترسخت في وعينا الاجتماعي وهي : كل شيء نصيب . وكذلك : كل شيء بيد الله .

ولقد كان لمثل هذه المقولات الأثر الخطير في سلوك المسلمين .

ولا أحد يستطيع أن يشكك في صحة هذه المقولات من المنظور الإسلامي ولكن المشكلة في المعنى الذي استخلصه الكثيرون منها وجعلوا منه مسوغًا لتبرير إتكالاتهم وسلبيتهم وسلوكهم الإستسلامي وهذا المعنى الذي استخلصوه هو : أنه مادام كل شيء نصيب وكل شيء بيد الله فلا مجال لمشيئة الإنسان وإرادته أمام الأحداث وليس على الإنسان إلا أن يستسلم لما تدفعه إليه الظروف المحيطة به لأن ذلك قدره ونصيبه بل وقد يمضي الأمر إلى اعتبار محاولته للخروج من تلك الظروف هو تحدي لإرادة الله سبحانه وتعالى .

ونحن نعلم طبعًا إن كل شيء بيد الله وإن كل شيء نصيب ونؤمن بذلك أشد الإيمان ولكن تعالوا بنا نتسائل : ما هذا الشيء الذي نعتبره

نصيبًا يجب الاستسلام له ؟ هل هو الشيء الذي تم بالفعل ؟ أم الشيء الذي لم يتم ؟

من الطبيعي أننا عندما نكون أمام أحداث ما في حركة حياتنا فإننا لا نستطيع أن نتكلم إلا عن الشيء الذي تم بالفعل لأنه الشيء الذي تحدد ومن ثَمَّ جاز لنا القول بأن النصيب قد فعل كذا أما الشيء الذي لم يتم بالفعل فإننا لا يجوز لنا أن نسميه نصيبًا لأنه لم يتحدد بعد ولا يستطيع أحد منا أن يدعي علمه بما تريده المشيئة الإلهية ومن ثَمَّ فقد يتوقع البعض حدوث أمر ما ويطلقون عليه لفظ نصيب ويتركون أنفسهم للإستسلام له ثم تكون النتيجة حدوث أمر آخر غير الذي يتوقعونه ومن هنا يبرز الخطأ الفاحش في اعتبار ما لم يتم بالفعل على أنه قدر (نصيب) لأن ذلك أمر في علم الله ولا يستطيع أحد إدراك ما ستوقعه الإرادة الإلهية على وجه التحديد .

كل الأشياء قدر في الله (نصيب) آمنا بذلك غاية الإيمان ولكن النصيب المحدد هو النصيب الذي وقع بالفعل أما النصيب الذي لم يتم وقوعه فهو نصيب لم يتحدد بعد ولذلك فلا يجوز لأحد إعطائه وجهة معينة ومطالبتنا بالإستسلام لها على أساس أن القدر على اليقين سيقرر هذه الوجهة .

قفوا عند هذه النقطة ورددوها كثيراً لأنها غاية في الأهمية :

وجود إسرائيل جاثمة على أرواحنا في قلب العالم الإسلامي قدر ونصيب حتى ولو كان ذلك راجع إلى أخطائنا ولكن مهما كانت قوة

إسرائيل ومن يساندها فإن ذلك لا يعني أن دخولنا معها في أي معركة جديدة سيكون نصيبنا فيها الهزيمة لا محالة ! من الذي قال هذا ؟ هل يستطيع أحد إدعاء إدراك ما تريده المشيئة الإلهية ؟ هل من الممكن الإستناد في ذلك على مفهوم القضاء والقدر في الإسلام ؟

فتاة تزوجت من أحد الأشخاص ثم اكتشفت بعد زواجها منه عيوبًا جسيمة في شخصيته كافية لجعل حياتها معه جحيمًا . هنا نقول : نعم إن زواجها منه نصيب تحدد لكن من الذي قال أن استمرار حياتها معه نصيب تحدد يجب الإستسلام له .

فريق لكرة القدم أصيب في الشوط الأول من المباراة بثلاثة أهداف في مرماه . هنا نقول إن إصابته بهذه الأهداف الثلاثة في الشوط الأول نصيب قد تحدد لكن من الذي قال إن هزيمته في المباراة كلها نصيب قد تحدد يجب الإستسلام له .

إن هذه الأمثلة تؤهلنا لأن نشرح الموضوع شرحًا أكثر وأن نتعرض لأمور فيه غاية في الخطورة والعمق .

لقد قلنا أن ما تم بالفعل نصيب تحدد أما ما لم يتم فإنه نصيب لم يتحدد بعد ، إذن فما دمنا لا ندرك ما الذي تريده المشيئة الإلهية فعلينا أن نعمل جاهدين لتحقيق ما نريد تحقيقه فقد يكون هو الذي ستقرره الإرادة الإلهية في النهاية ويكون ذلك الذي أردناه هو النصيب الذي تحدد بالفعل .

سيقال : إن الأمور التي لم تتحدد بعد لها ظواهر تغلب عليها يبدو منها الوجهة التي ستمضي إليها .

نقول إن هذه الأمور التي تثير مثل هذه التساؤلات الكبرى في حياتنا هي أمور أشبه بالمعارك فإذا جاز لنا أن نصفها هذا الوصف نستطيع أن نقول أنه مادامت أي معركة لم تنته بعد فلا يمكن التسليم بأنها تذهب لوجهة ما نقف عندها مهما كانت الظواهر الدالة على ذلك لأنه مادامت المعركة لم تنته بعد فالفرصة مازالت ممكنة للحركة .. للفعل .. لصنع ما هو من الممكن أن تقرره الإرادة الإلهية في النهاية ومادامت المعركة لم تنته بعد وما دمنا لا نستطيع إدراك ما الذي تريده الإرادة الإلهية في النهاية فإن القدر (النصيب) لم يتحدد بعد ومازالت الفرصة قائمة لكي يكون ما نريد تحقيقه هو النصيب الذي سيتحدد في النهاية .

ولكن تعالوا لمسألة أخطر .. قلنا: أن ما تم بالفعل هو قدر (نصيب) تحدد ولكن من الذي قال أنه قدر (نصيب) نهائي يجب الاستسلام له وإلا نكون بذلك قد اعترضنا على الإرادة الإلهية ؟! .

إن ما تم بالفعل ما دامت هناك إمكانية لتغييره فإن محاولة تغييره بأيدينا هي قدر أيضًا وما سيتم عن هذه المحاولة قدر (نصيب) أيضًا فليس هناك ما يحتم علينا قبول ما تم وليس هناك رادعًا يمنعنا من محاولة التغيير مادمنا لا ندرك أن المشيئة الإلهية قد أرادت استمرار هذا الأمر أم أرادت تغييره وهو أمر لا يجوز لأحد إدعاء إدراكه .

إذن فما دامت هناك إمكانية لتغيير الأمر الذي تم بالفعل فلا يجوز لأحد إدعاء أن محاولة التغيير هذه تمثل إعتراضًا على الإرادة الإلهية .. هذا جهل وتخلف ورجعية وافتراء على الدين ما أنزل الله به من سلطان .

إن ما تم نصيب ومحاولة التغيير مادامت هناك إمكانية لذلك نصيب وما سيتم نصيب أيضًا وليس هناك أي حتمية توجب الإستسلام لما سيقع أو حتى لما وقع بالفعل مادامت هناك إمكانية للتغيير لأن هذه الإمكانية تنفي وجود القدر (النصيب) النهائي الذي يجب الإستسلام له فهذا القدر النهائي الذي يجب الإستسلام له لا يكون موجوداً إلا في حالة واحدة هي انتفاء وجود أي إمكانية لتغييره . عند ذلك فقط فإن عدم التسليم له يكون إعتراضًا على المشيئة الإلهية وما علينا في هذه الحالة سوى التسليم والرضى بما قسمه الله لنا .

* * *

٣ - حرية الإرادة
بين الإنسان المسيطر
والإنسان المسيطَر عليه

شخصية الإنسان بين السيطرة والتبعية

هناك طغاة يحكمون الأرض ..

ليس على المستوى السياسي فقط وإنما على المستوى الاجتماعي أيضًا .

قلوب من حجارة أو أشد قسوة ..

قلوب يمتلكها الكبر والظلم والجبروت ..

ومن هذا المعين الأسود تريد أن تنسج الحياة على أهوائها .

إن ما يريدونه فقط هو الحق الحقيقة وكل ما هو غير ذلك فلا شيء .

وكما أن هولاكو ونابليون وهتلر لا يهمهم في شيء سحق ألاف البشر من أجل بناء مجدهم الشخصي واغتصاب خيراتهم .

فإن هؤلاء على المستوى الاجتماعي لا يهمهم في شيء هرس عشرات النفوس من أجل إرضاء ذاتهم واغتصاب أعمارهم .

وكالوحوش التي تمتص الدماء من عروق فرائسها الضعيفة فإن هؤلاء يمتصون السعادة من عروق ضحاياهم من النفوس الضعيفة .

لا العدل .. لا الرحمة .. لا الإحساس .. لا الشعور .. لا الحلال .. لا الحرام .. لا شيء في الوجود من مثل هذه الأشياء يمثل أي معنى لديهم انظر إلى وجوه هؤلاء جيداً تراها كصخر لا يلين .. إنهم قوم أرادوا منذ البدء أن ينازعوا الله في ألوهيته وكيف لا وأهم ما يميزهم هي الأنانية التي لا حدود لها والشعور الدائم بجنون العظمة .

ونحن ندرك هذا النوع من البشر ضمن ذلك النوع من الأنماط البشرية الذي يوصف بالسيكوباتية « حيث يتميز الشخص السيكوباتي بالأنانية

وعدم مراعاة شعور الغير أو حرمة ممتلكاتهم وحقوقهم وعدم تأنيب الضمير أو الشعور بالذنب وتعوزهم القدرة على الحب أو التعلق بأي شئ أو أي أحد وقد يضحون بأقرب صديق أو أقرب قريب لهم في سبيل منفعة ذاتية ، وبالرغم من قدرتهم على التعبير عن انفعالتهم وعواطفهم فهو نادراً ما يكونوا صادقين فيها » [١] .

ولذلك فهذا النوع من البشر بالذات يكون في الدرك الأسفل من النار يوم القيامة .

والمشكلة ليست في هؤلاء ..

فالمشكلة في من ينشأون أو يسقطون في محرقة سيطرتهم .

والحقيقة الواقعة التي يجب أن نواجهها هي أن هذا الشخص المستبد يمثل بالنسبة لمن ينشأون أو يسقطون في محرقة سيطرته واستبداده الطاغوت الذي أمرنا الله بالكفر به .

وكيف لا يكون كذلك .. إذا كان هو الذي يحدد لهم الحق والباطل والخير والشر والحلال والحرام والنجاح والفشل والصح والخطأ والعيب واللاعيب .. وهي الأمور التي لا يجوز أن تستمد إلا من المصادر الإلهية .

ولابد أن يخرج الإنسان من سيطرة هذا الطاغوت أو بقول أقرب إلى الحقيقة لابد أن يخرج من ظلمات عبوديته إلى نور الإيمان بالله وحده سبحانه وتعالى .

---

(١) المرجع في علم النفس : د. سعد جلال : ص ٨٠٨ .

ولا طريق إلى ذلك إلا بالاستناد على ركائز القوي المستمدة من الإيمان بالله سبحانه وتعالى لابد من الاستعانة بالله والتوكل عليه لأن من يستعين بالله ويتوكل عليه لا يستطيع أحد في هذا الوجود هزيمته .

ولابد من تحمل الخسائر .

لا شيء ذا بال في هذا الوجود يمكن تحقيقه بلا خسائر . لابد من الخسائر .

لابد من تحمل الخسائر مهما كان حجمها في سبيل تحرير الإنسان من عبودية غيره .. وهل توجد خسائر في العالم يمكن مقارنتها بخسائر الوقوع في محرقة سيطرة شخص طاغٍ مستبد .

إن صورة بسيطة تستطيع أن تتبين من خلالها حقيقة الفرق بين الأمرين أمامك .

قارن ولو للحظة واحدة من الحرية والوعي ـ إن كنت مازلت تملك هذه اللحظة ـ بين الحالة التي تقع فيها وبين الحالة التي يمكن تصورها لو كنت أنت بالفعل ـ وليس بالإيهام ـ تخرج عن سيطرة هذا الطاغوت وتقرر مصيرك ومواقفك في الحياة بيدك .

قارن بين السعادة التي كان يمكنك تحقيقها لو كانت قراراتك بيدك وبين التعاسة الحقيقية أو السعادة الموهومة التي تعيش فيها وأنت ترزخ تحت عبودية غيرك .

قارن بين هذا وذاك ليس بموازين الدنيا فقط وإنما بموازين الآخرة أيضًا .

قــارن بين رضى هذا الطاغــوت ورضى الله الذي لا يرضى أن يدين أحد لأحد بالعبودية إلا له .

قارن بين غضب هذا الطاغوت وبين غضب الله الذي يغضب على كل من يجعلون له أنداداً يحبونهم كحبه .

كيف تخسر دنياك وآخرتك لدنيا يصيبها غيرك ؟

نعم .. دنيا يصيبها غيرك .

لأن السعادة التي تفتقدها لوقوع قراراتك تحت سيطرة غيرك .

تصير مداداً لتغذية هذا الطاغوت وتقويته .

كيف تقبل هذا ؟

وأي خسائر في هذا الوجود يمكنها أن تجبرك على الرضى بذلك ؟

وأي خداع أو غواية أو سيطرة يمكنها أن تلهيك عن هذه الحقيقة المريعة ؟

إننا إذا كنا نتحدث عن الشخصية الضعيفة والشخصية القوية فلابد أن نقرر أن الذي يقع تحت سيطرة غيره لا شخصية له على الإطلاق مهما أوهمه هذا الطاغوت بغير ذلك .

* * *

العواصف العائلية تقتلع الأشجار الواهية

إن الصورة المبسطة لسيطرة الشخص الطاغوتي على الشخص المستضعف هي أن يأمر الأول فيطيع الثاني وبذلك لا تتشكل حياة الثاني إلا داخل نطاق دائرة الأول .

ولكن هناك العلاقة الأشد تعقيداً من هذه الصورة الساذجة .

إنها مزيج من فرض القوة والخداع معًا .

فلن يأمر الشخص الطاغوتي الشخص المستضعف بشيء ولكن سيجعله هو نفسه يحدد لنفسه ما يريده هو له .

ما معنى ذلك ؟! .

إنه يضعه في دائرة حديدية من الضغوط ويفهمه ضمنيًا إنه لن يتوانى لحظة واحدة عن تحطيمه إذا تحدى هذه الضغوط وحاول الخروج من دائرتها ومن ناحية أخرى يعمل على إغرائه بأنه سيكون صاحب الحظوة والمكانة لديه دون الآخرين إذا حدد أهدافه ومواقفه داخل الدائرة المسموح له بها .

وبعد أن يكون الشخص الثاني قد انصاع للأول طمعًا في حظوته وخوفًا من تحدي ضغوطه يكون قد اعتقد بأن ما ناله من تفوق على الآخرين في التقرب من الشخص الطاغوتي ـ الذي قد يمنحه الحق في فرض بعض السيطرة المحددة عليهم ـ هو تعويض له عما فقده من استقلال وما قدمه من تنازلات للشخص الطاغوتي وتكون الحقيقة أنه

قد دخل دائرة اللاتراجع في استعباد الشخص الطاغوتي له . لقد صنع له كبرياءه المزيف الذي جعله يخسر كل شيء من أجل الحفاظ عليه ووضعه بذلك أمام خيارين لا ثالث لهما إما أن يحافظ على ذلك المكسب الموهوم المتمثل في حظوة الشخص الطاغوتي وما منحه له من سيطرة على الآخرين وإما أن يعرض نفسه للتحطيم الكامل إذا حاول تحدي إرادته .

وهو الأمر المستبعد تمامًا لأن استضعاف النفس كالكائن الحي ينمو ويكبر بمرور الوقت وتعدد المواقف حتى يصير وحشًا مرعبًا يستقر في النفس ويبعث فيها الرهبة عند أي تفكير في تحديه .

كما أن الشخص الطاغوتي لن يتأتى له إحكام قبضته على الشخص المسيطر عليه إلا من خلال إحكام قبضته على وعيه ولذلك فهو يعزله عن أي شخص لديه الجرأة على تحديه كما أنه يعزله شعوريًا عن أي مصدر قد يتأتى منه الوعي القادر على كشف زيفه وتحدي غطرسته .

إنه يضعه في طريق وحيد ويغلقه عليه ويفهمه أنه لكي ينال رضاه فلابد أن يتجرع المرار ويشهد أمام كل الناس إنه شهد مذاب .

إنها درجة من الإضلال والكيد لتزول منها الجبال .

وبذلك يستمر الشخص الواقع تحت السيطرة الطاغوتية في إتخاذ الخيار الأول وهو تحقيق رضى الشخص الطاغوتي بشكل مطرد حتى يصير هذا أمراً ميكانيكيًا مستمراً على الدوام فهو لا يريد إلا ما يحقق رضى الشخص الطاغوتي حتى تذوب إرادته في إرادة ذلك الشخص

الطاغـوتى تمامًا ولأن هذا مـا يصنع له مكسبه الموهوم فإنه يجد الراحة والسعادة في أن تتمثل إرادته إرادة الشخص الطاغوتي على الدوام .

وبذلك عندمـا يتـعـرض ذلك الشـخص الواقع تحت تلك الدرجة من السيطرة الطاغـوتية لموقف من المواقف فإن الشـخص الطاغـوتي يتـركه يفعل ما يشـاء في اختيـار موقـفه وهو واثق تمامًا إنه لن يشاء إلا ما يريده هو .

بينمـا الشخص المستعبد الذي بات مع مـرور الوقت يختـارمـواقـفه بتمثل إرادة الشخص الطاغوتي يعتقد أنه يختار هذه المواقف على إرادة حـرة منه مع أن الحقيـقـة أن إرادته قـد ذابت تمامًا في إرادة الشـخص الطاغوتي وأنه هو نفسه يدرك في المستويات الشعورية العميقة مرارة الفصام الفظيع بين إرادته الموهومة ووضعه الزائف وبين الواقع الحقيقي لعبوديته .

وهكذا لا يشـاء الشـخص المستـعـبـد شـيـئًا إلا مـا يريده الشـخص الطاغوتى في نفس الوقت الذي يعتقد فيه إنه يحقق ذاته ويتقدم إلى الأمام بها نحو القوة وفرض السيطرة على الآخرين .

وقـاعدة الانطلاق للخروج من محرقة السيطرة الطاغوتية هي الوعي الإيماني .

لابد أن يعي الإنسان المستـعـبـد بحـقـيـقـة استـعـبـاده وزيف العـالم المصطنع الذي يضعه فيه الشخص الطاغوتي .

الوعي بحقيقة أن حرية الإرادة هي الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان وأن التفريط فيها خيانة .

لابد أن يعي أن أي خسائر من الممكن أن يتعرض لها نتيجة لتحديه لهذا الشخص الطاغوتي هي أقل كثيراً من الخسائر التي يعاني منها بالفعل نتيجة تسليمة إرادته لهذا الشخص لأن فاقد الإرادة هو فاقد كل شيء .

لابد أن يعي إنه لا حاكم في هذا الوجود إلا الله ولا حق في هذا الوجود إلا الحق الذي يحققه الله وإنه لا قيم ولا معايير من الممكن أن نحتكم إليها في هذا الوجود إلا القيم والمعايير المستمدة من دين الله . ولا طاعة لأحد في هذا الوجود إلا لله ولمن أمرنا الله بطاعته فإذا حلل أحد شيئًا حرمه الله أو حرم شيئًا أحله فلا طاعة له لأنه « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

لابد أن يعي أن تبعيته لهذا الشخص الطاغوتي واستسلامه له وإيمانه بصحة ما يراه وحبه لكل ما يذهب إليه حتى ولو تعارض مع أحكام الله وتعاليمه . إنه بذلك يجعل منه نداً لله يحبه كحب الله أو أشد حبًا وكما يقول الرسول ﷺ : « المرء مع من أحب يوم القيامة » أي أنه يكون بذلك قد خسر كل شيء الآخرة والدنيا معًا من أجل دنيا يصيبها غيره .

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله . ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعًا وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا . كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥ : ١٦٧] .

ويقول تعالى :

﴿ وبرزوا لله جميعًا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء . قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ .

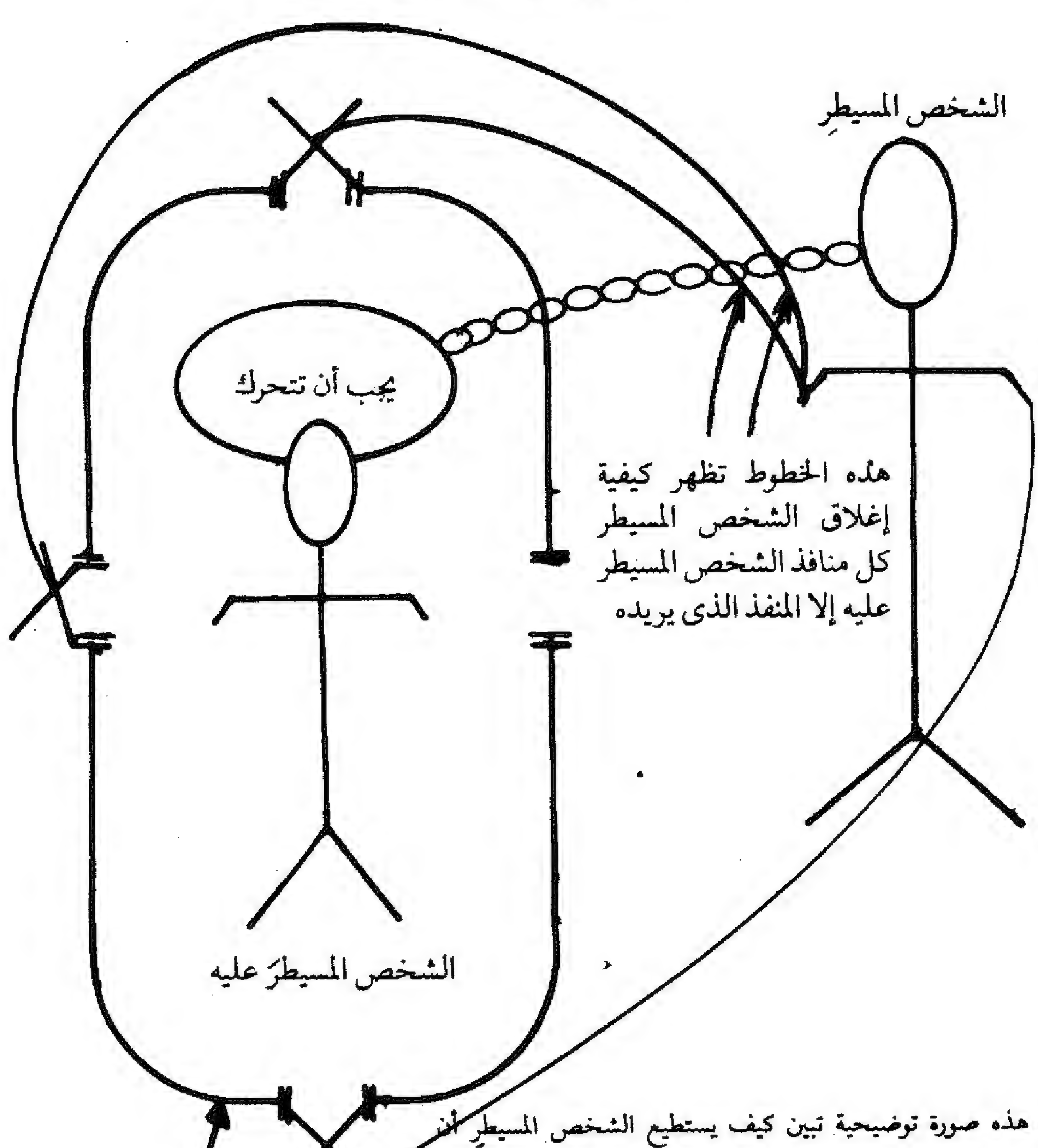
[سورة إبراهيم : ٢١]

ويقول تعالى :

﴿ وإذا يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار . قال الذين استكبروا إنا كل من فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ [سورة غافر : ٤٧ ، ٤٨] .

* * *

صورة من صور السيطرة غير المباشرة



هذه صورة توضيحية تبين كيف يستطيع الشخص المسيطِر أن يجعل الشخص المسيطَر عليه يمضى فى الطريق الذى يريده دون أن يأمره بذلك . وذلك بإغلاق كل المنافذ التى من الممكن أن يتجه إليها عليه دون المنفذ الوحيد الذى يريده أن يتجه إليه ثم يأمره بالتحرك فلا يجد الشخص المسيطَر عليه أمامه غير هذا المنفذ لن يقول له لا تأكل هذه الجزرة ولكن سيقول : أنا لا أحب الجزر وبذلك لا يستطيع الشخص المسيَطرَ عليه أن يقول : أريد جزراً .

٤ - الكبر كقيد كبير على حرية الإرادة

الكبر كقيد كبير على حرية الإرادة

الكبر هو الجريمة الأولى في الوجود .

الكبر هو التحدي الجاحد لإرادة الله .

الكبر عائق مريع يحول بين الإنسان وبين الحقيقة .

وبينه وبين الإيمان .

وبينه وبين الحب .

وبينه وبين الصدق .

وبينه وبين الحرية .

وبينه وبين الراحة .

وبينه وبين الأمان .

وبينه وبين كل ما هو جوهري في الحياة .

وبينه وبين امتلاكه للقوى الحقيقية التي من الممكن أن يصنع منها شخصيته .

ولكن الناس قد تنظر إلى الكبر على أنه مجرد عيب أخلاقي مثله في ذلك مثل الكثير من العيوب الأخلاقية الأخرى بل أنه قد لا يقابل بالإستياء الذي تقابل به عيوب أخلاقية أخرى هي في حقيقتها في مرتبة أدنى منه كثيراً من ناحية الإستهجان الديني لها .

يقول الإمام سفيان بن عيينة : من كانت معصيته من شهوة فأرجو له التوبة فإن آدم عليه السلام عصى مشتهيًا فغفر له .

فإذا كانت معصيته من كبر ، فاخش عليه اللعنة فإن إبليس عصى مستكبراً فلعن .

ولكن ما هو الكبر ؟

يعرف الرسول ﷺ الكبر فيقول : « الكبر : هو بطر الحق وغمط الناس » وبطر الحق : أي رفضه ودفعه ورده على قائله الخلاصة : إنكاره . وغمط الناس : أي احتقارهم والإستعلاء عليهم .

وفي الحقيقة فقد أقام الإسلام حربًا ضروسًا لا تنقطع ولا يهدأ لها أوار ضد الكبر والمستكبرين في الأرض إلى يوم القيامة .

يقول رب العزة عن نفسه في قرآنه الكريم :

﴿ إنه لا يحب المتكبرين ﴾ .

﴿ ولا تمش في الأرض مرحًا إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ .

تُرى ما هي قيمتك في هذا الوجود إذا كان الله لا يحبك .

وهزأ القرآن بهم وسفه منهم .

﴿ لا تمش في الأرض مرحًا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ .

من أنت ؟ ومن تكون ؟ هل تستطيع أن تخرق الأرض ؟! .. يا لها من سخرية . وماذا تكون أنت مهما بلغت أو تعددت محاسنك بالنسبة للأرض لكي تستطيع خرقها ؟!!....

مخلوق ضعيف يهيم على وجهها مثلك مثل الملايين غيرك الذين طوتهم هذه الأرض وصاروا بعض ترابها الذي تسير أنت عليه الآن .

وماذا تكون أنت بجانب الجبال ؟ مخلوق ضعيف هين لا يكاد يبين بينما هي على شموخها وعظمتها وجمالها وضخامتها التي تراها هكذا على مر الأزمان والعصور تأتي لله طائعة خاشعة مقرة له وحده بالكبرياء والعظمة والجبروت .

والكبرياء لا يليق إلا بالله الواحد القهار وقد جاء فيما يرويه الرسول ﷺ عن رب العزة في حديثه القدسى :

« العز إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن ينازعني عذبته » .

[رواه مسلم]

نعم إذا كان الله قد جعل الكبرياء له وحده فمن هذا الذي يريد أن يشاركه فيه .

ولذلك فقد جاء الحديث النبوي يقرر بكل حسم أنه :

« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » .

فالمتكبرون ليس لهم إلا مصير واحد تقرره النصوص بكل حسم أيضًا هو النار .

جاء في الصحيحين عن الرسول ﷺ أنه قال :

« قالت النار : أوثرت بالمتكبرين » .

وعنه ﷺ في الصحيحين أيضًا أنه قال :

« ألا أخبركم بأهل النار ؟ : كل عتل جواظ مستكبر » .

والخسف أو الإذلال في الدنيا قد يصيب بعض المتكبرين ولا يصيب البعض الآخر لاستدراج الله لهم في غيهم . يقول الرسول ﷺ :

« إذا رأيت الله يعطي الظالم على ظلمه فاعلم أنه استدراج » .

[كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل]

أما قاعدة الخسف والإذلال والتحقير والمهانة يوم القيامة فإنها قاعدة عامة تطبق على المتكبرين أجمعين فلا يفلت منها أحد . وفي ذلك يقول الرسول ﷺ :

« يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذر (أشبه بالحصى) يطؤهم (أي يدوسهم) الناس لهوانهم على الله عز وجل » .

نعم .. إن الجزاء العادل للمستكبرين في الأرض الذين يتحدون إرادة الله ويتعالون على خلقه هو أن يداسوا بالأقدام يوم القيامة .

* * *

الكبر يؤدي إلى أن يتقوقع الإنسان داخل ذاته جاعلاً منها إلها آخر مع الله ومن هنا كان الكبر قرينًا للشرك .

الكبر يؤدي إلى الخوف من كل شئ قد يعرض صورة الإستعلاء على التي يبديها المتكبر للمساس وما أكثر الأشياء التي من الممكن أن تعرضه لذلك .

الكبر يؤدي إلى التضحية بكل ما هو جوهري في سبيل الإبقاء على كل ما هو شكلي .

الكبر يؤدي إلى أن يعيش الإنسان في حصار من كراهية الناس ونقمتهم .

الكبر يؤدي إلى هزيمة الإنسان الحتمية في الحياة لتعارضه مع المرونة التي تستوجبها معاركها .

الكبر يؤدي إلى تردي الإنسان السريع في هاوية الإستعاضة بالمكاسب النفعية عن المقومات الحقيقية للإنسان .

الكبر يؤدي إلى أن يحيا الإنسان فاقداً كل شئ .

فاقداً حياته الدنيا

وفاقدا حياته الآخرة .

كل ذلك في سبيل الدفاع عن شئ واحد هو عبادة نفسه والشعور الدائم بالتعالي على الناس والنار مثوى المتكبرين .

إن العزة في الإسلام هي عزة الخضوع للحق عزة التعالي على الباطل وتحديه ومواجهته بكل ما أوتى الإنسان من عزم وقوة وقدرة على التضحية وتحمل الخسائر .

عزة الخضوع للحق الذي هو أوامر الله التي يجد المؤمن منتهى عزته في الخضوع لها .

إن معاندة الحق والحقيقة هي إختيار الإنسان لطريق التردي في هاوية الكبر الزيف والضلال .

فهل من الممكن أن يقيم الإنسان فوق ذلك كبرياء ؟ ؟!!..

* * *

٥ - من الذى يمثل شخصية الإنسان عمل الإنسان أم البرستيج

ضد البرستيج

أنت من ؟ ....

أنت عملك ....

تحرر من كل أردية [1] الزيف التي تحجبك عن حقيقة نفسك وحقيقة الأخرين .

ما هي حقيقة وجودك ؟ وما هي حقيقة الإنسان بوجه عام ؟

أيها الإنسان ما هو المعيار الحقيقي لتقييم نفسك وتقييم الآخرين .

هل هو أمر آخر غير عملك وعمل الأخرين ؟

هل من الممكن تقييم الإنسان بشيء آخر غير الشيء الناتج عن إرادته ؟

وهل هناك شيء آخر ينتج عن إرادة الإنسان سوى عمله ؟

وأي فضل للإنسان فيما لا إرادة له فيه ؟!

يقول تعالى : ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ .

[الحجرات : ١٣]

ويقول الرسول ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » .

---

(١) أردية : جمع رداء .

ويقول كذلك : « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمى إلا بالتقوى » .

وإذا أخلصت النية لله فلا فرق بين العمل الديني والعمل الدنيوي لأنه في هذه الحالة يكون العمل الدنيوي هو أيضًا عمل ديني .

فعمل الإنسان هو الذي يقيم بناء حقيقة وجوده وتتحدد قيمة هذا البناء بمدى قيمة العمل المبذول على امتداد حياته وعلى ذلك يكون عمل الإنسان هو الذي يمثل هذه الحقيقة .

إن الفارق الوحيد بين الإنسان الحقيقي الذي يعيش في الحقيقة والإنسان المزيف الذي يعيش في الزيف والضلال هو مدى إيمانه أو عدم إيمانه بهذه القاعدة : قاعدة كون الشيء الوحيد الذي يمثل قيمة الإنسان هو عمله .

من غير المعقول أن يمثل قيمة الإنسان رداء جميل أو مظهر حسن بينما يكون عمقه الداخلي منطويًا على التفاهة والفجور والإبتذال .

من غير المعقول أن يمثل قيمة الإنسان الإنتساب إلى عائلة أو أسرة كبيرة بينما يكون ما أضافه هو إلى وضعها هو نفس الإضافة التي يضيفها الصفر الحسابي إلى قيمة رقمية كبيرة .

وليس من المعقول أن يمثل قيمة الإنسان ثروته بينما يكون هو تافهًا لا يحسن شيئًا ولم يبذل جهداً في صنع هذه الثروة أو أتى بهاعن طريق غير شرعي وهو أمر لا يدعو إلى الفخر بل يعبر عن الوضاعة والحقارة والضياع .

لكن الذين يعيشون في الزيف ينسون كل ذلك ولا يبحثون إلا عن شيء واحد هو ما يحقق لهم وضعًا اجتماعيًا يمكنهم من خلاله التعالي على الناس .

البرستيج .. البرستيج .. البرستيج :

هو كل شيء .. كل شيء .. كل شيء ..

ويُضحى من أجله بكل شيء ..

ليس مهمًا أن امتلك شيئًا حقيقيًا ولكن الأهم أن أظهر في الواقع الاجتماعي بأنني أمتلك شيئًا كبيراً .

ليس من المهم أن أخسر الكثير من الأموال في سبيل إيهام الناس بأنني أملك ثروة كبيرة حتى ولو كان ما أملكه مثقل بالديون ومهدد بالخراب .

ليس مهمًا أن أتكلم كلامًا سليمًا حقيقيًا ولكن المهم أن أهتم بالطريقة التي أتكلم بها حتى أبدو أمام الناس أنني عاقلاً حكيمًا حتى ولو كان ما أقوله تافهًا أو مزيفًا .

ليس من المهم أن أكون سعيداً وأصحح مسار حياتي لأحقق هذه السعادة المهم أن أبدو أمام الناس أنني سعيد وأنني لم أخطأ في تحديد مساري حتى ولو أدى ذلك إلى أن أعيش حياتي كلها فى مسرحية مزيفة كل يوم أقدم فيها فصلاً جديداً .

ليس من المهم أن أخرج من ورطتي وأصنع الصح وانتهز الفرصة إذا سنحت لي وأخرج من دنيا الضلال التي أعيش فيها إلى دنيا الحق والإيمان .

لا .. لا .. لا .. هل أعرض البرستيج للإنهيار ؟

لا .. لابد أن أكمل طريقي وأظل مستمراً في الضلال لأن رجوعي عن هذا الطريق يعني إقرار مني أمام الجميع أنني كنت في طريق ضال أي أن شكلي الاجتماعي (البرستيج) الذي يمثل كبريائي الذي أعيش من أجله كان مزيفًا ؟ لا .. لا .. فليهن كل شيء من أجل الحفاظ على هذا البرستيج .. الحلال والحرام معًا .

لا تقل لي أترك هذا الطريق .. إن هذا الطريق يسبب لك الوقوع في الكثير من المحرمات .. لا تقل لي هذا .. كيف أعترف على نفسي بذلك وأعرض صورتي للإهتزاز ..

لا .. لا .. سأستمر في خطئي أيًا كان وأقنع نفسي أو أدعي أمام الآخرين أنه الطريق السليم وأن ما تدعوني إليه هو الخطأ والحرام والضلال وسوف تضيع الحقيقة وتختفي معالم القضية في مجتمع يجعل الجهل السائد فيه الحلال حرامًا والحرام حلالاً ومن ذا الذي يهتم في هذا المجتمع أصلاً بالبحث عن الحلال والحرام أو الصح والخطأ المهم البرستيج والبرستيج فقط .

وهكذا فالإنسان الحقيقي هو الإنسان الذي يضحي بكل ما هو شكلي مظهري في سبيل كل ما هو حقيقي جوهري .

والإنسان المزيف هو الإنسان الذي يضحي بكل ما هو حقيقي جوهري في سبيل كل ما هو شكلي مزيف .

ومن الطبيعي ألا يتعاطف الإنسان مع الذين صنعوا الزيف بأنفسهم واختاروا أن يعيشوا فيه لكن المشكلة في هؤلاء الذين ترغمهم الظروف أو يوقعهم الجهل الاجتماعي في عالم من الزيف والضلال وعندما تسنح لهم الظروف بالخروج من هذا العالم يصطدمون بهذه المشكلة مشكلة أن خروجهم من هذا العالم إقرار منهم بزيف العالم الذي كانوا يعيشون فيه وهو ما يتعارض مع كبريائهم .

وهنا تتجلي مدي قوة النفس ومدي تمسكها بإيمانها وحقائق دينها .

لأن الذي يحمل إيمانًا حقيقيًا هو الذي ينتهز فرصة الخروج من عالم الزيف الذي أرغم على الوقوع فيه لكي ينطلق منه محطمًا عوائق الكبرياء والشكل الاجتماعي التي تحول بينه وبين الخروج من عالم الزيف إلى عالم الحقيقة .. من الظلمات إلى النور .

لأن المؤمن الحقيقي لا يستطيع أن يضحي بالحق من أجل الزيف .. وبطريق الهداية من أجل الحفاظ على كبرياء الضلال والشكل الاجتماعي المزيف .. وإلا فإن إيمانه هو الآخر يكون إيمانًا مزيفًا .

وهناك نوعان من البشر المزيفين .

نوع يعيش في الزيف ويرتضيه ويقتنع أنه الحقيقة وهؤلاء كالأخسرين أعمالاً الذين قال عنهم القرآن : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً : الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً ﴾ [الكهف : الآية ١٠٢ : ١٠٥] .

أما النوع الآخر من البشر المزيفين فإنهم يدركون حقيقة الهوة السحيقة التي تفصل بين واقعهم الحقيقي وبين واقعهم المزيف الذي يبرزونه ويختفون تحته .

ولكن حاجز الكبرياء يقف حجر عثرة دون إعترافهم بذلك والتخلي عن الوهم والزيف والإدعاء والصعود بالنفس من مستنقع الضلال إلى بر الهداية والصلاح .

وهذا الصراع بين الإنحطاط الداخلي وبين الصورة الموهومة التي يبرزونها يمثل حقيقة التمزق الذي يعاني منه المريض الإنفصامي الذي يعمل دائمًا على الإستغراق في حياة موهومة منفصلة عن الواقع الحقيقي لحياته .

وكلما اعتمد الإنسان على المظاهر ليستمد منها قوته كلما افتقد على التوازي من ذلك دعائم القوة الحقيقية التي من الممكن أن يصنع منها لنفسه شخصية قوية بشكل حقيقي وليس بشكل مزيف .

ولذلك فالأشخاص الذين يعتمدون على المظاهر في صنع شخصيتهم هم أنفسهم أكثر الأشخاص ضعفًا .

مهما حاولوا أن يلزموا أنفسهم على البروز للناس في مظهر الشخصية القوية الفريدة من خلال التركيز على إداء كافة المظاهر المشاعة عن سمات الشخصية القوية من حركة ولا حركة وطريقة أداء للكلام وطريقة أداء للصمت وأسلوب للدخول في موضوع ما وأسلوب للخروج منه وغير ذلك .

والدليل على ذلك ؟ هو زلزلة مثل هؤلاء الأشخاص وارتعادهم وتخبطهم في مواقفهم عند تعرضهم لأي موقف ذي شأن في حياتهم .

وقد جاء في وصف الله للمنافقين قوله تعالى :

﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم .. ﴾ [المنافقون : الآية ٤٠] .

وللشاعر الفارسي سعدي الشيرازي كلام رائع في هذا المعنى :

« إنما يشرف جسم الإنسان بروح الإنسان ..

ليس اللباس الجميل هو إمارة الإنسانية ..

لو أن الإنسان بعينه وفمه وأذنه وأنفه . فبأي شيء يفترق إذن عن نقش مرسوم على جدار ..

الطعام والنوم والغضب فتنة وجهل وظلمة ..

وليس لدى الحيوان خبر بعالم الإنسانية ..

كن إنسانًا حقيقة وإلا فأنت ببغاء ..

تعيد كلامًا بلسان إنسان ..

إن لم تكن إنسانًا فأنت أسير الشيطان ..

على حين لا يجد الملك سبيلاً إلى الظفر بالمكانة الإنسانية ..

لو أن طبيعتك الوحشية فنيت من جبلتك ..

لعشت طول عمرك بروح إنسانية ..

يصل الإنسان إلى حيث لا يرى سوى الله ..

فانظر إلى أي حد تبلغ بك مكانة الإنسانية ..

قد رأيت الطائر يطير صعداً ..

فتحرر من قيد الهوى حتى ترى كيف تصعد بك الإنسانية » . ا . هـ .

أقول : أيها الإنسان

تحرر من وطأة (البرستيج) على قلبك .

كيف تجعل من بروازك الخارجي الذي يصطنعه كبرياؤك الموهوم سجنًا لروحك؟!

حطم كل هذه القيود الخانقة واقترب من حقيقتك .

اسجد لله واعترف إنك لست شيئًا إلا عملك .

تكن إنسانًا حقيقيًا .

أي .. تكن إنسانًا قويًا .

* * *

ثانيا

ترسيخ المفاهيم والقيم الإيمانية داخل النفس الإنسانية

١ - ركائز القوة الإيجابية

لابد من القوة

لابد من القوة .

فالناس ليسوا مع الحق .

ولكن الكثيرين لا يدركون أن الناس أيضًا ليسوا مع الباطل .

وإنما الناس مع القوة .

ومع إن الحق قوة في ذاته .

ولكنه قوة لابد أن تدعم بقوى أخرى مثل التضحية والبذل والإخلاص والتصميم والفداء لكي يذاع وينتشر .

والخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول عن قوة مثل قوة السلطان : « إن الله ليذع بالسلطان ما لا يذع بالقرآن » .

وللقوة في الإسلام عدة ركائز تمثل جميعها جوانب وأركان العقيدة الإسلامية وما تنيره في نفس المسلم من وعي إيماني بهذا الوجود وعلى ذلك فإن قوة المسلم تتمثل في مدى عمق تمسكه ويقينه بحقائق عقيدته.

إن الإنسان الرباني هو الإنسان الذي تتمحور حياته حول لا إله إلا الله.

فإذا أردت ألا يفوقك أحد قوة فاجعل من لا إله إلا الله قوتك وحريتك وقاعدة إنطلاقك في هذا الوجود .

وهذه هي بعض ركائز تلك القوة .

* * *

الإعتصام بالله

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ .

أيها الإنسان أين تذهب ولمن تلجأ ؟ .

فالله هو المالك الوحيد لهذا الوجود .. هو وحده الذي بيده ملكوت الأمر وهو وحده الذي بيده الخير والشر .

هوالذي يبلوك وهو الذي بيده رفع بلائه عنك .

فكيف تلجأ لغيره ؟! .

وأي قوة في هذا الوجود يمكن أن تقارن بقوة الإعتصام بالله والإعتصام بالله يتمثل في إنتهاج تعاليمه وأوامره وشرائعه والوقوف عند حدوده وإقامة أركان دينه من صوم وصلاة وزكاة وحج والتقرب إليه بالسنن والنوافل وقيام الليل والتوكل عليه في كل حال والإلتجاء إليه في كل أمر والشعور الدائم بأنه معك في كل مكان يراقب كل ما تفعله من صغير أو كبير حتى تبلغ مرتبة الإحسان والتي هي أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك فإذا كان الله مولانا فهل من الممكن أن نلتجئ إلى مولى غيره وهل هناك نصير يمكن أن يدانيه قوة .

﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ [النساء : ١٤٦] .

﴿ فأما الذين أمنو بالله واعتصموا فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطًا مستقيمًا ﴾ [النساء : ١٧٥] .

﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ .

[آل عمران ١٠١]

إن الإعتصام بالله هو أن تتقرب إلى الله بالطاعة حتى تكون عبداً ربانيًا تتمثل إرادتك وسلوكك في كل ما تفعل إرادة الله العظمي .

* * *

التقوى والتوكل

إقرأ هذه الآية جيداً :

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقهُ من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا ﴾ .

يعرف الأمام علي ـ فيما يروى عنه ـ تقوى الله فيقول :

« تقوى الله هي الرضى بالقليل والعمل بالتنزيل والإستعداد ليوم الرحيل » .

إن تقوى الله هى سياج هذا الدين الذي يقي المؤمن من شر نفسه بالشطط إلى مسارب الشيطان ومن شر مكائد شياطين الإنس والجن ولذلك قال الرسول ﷺ في وصيته لإبن عباس: «إحفظ الله يحفظك».

ولو عكف الناس على مدارسة حقائق دينهم لنجوا بأنفسهم من كثير مما يصيبهم من مهالك ولأراحوا أنفسهم مما يعانونه من أجل البحث عن شفاء ما يصيبهم من علل شيطانية .

إنني أسائل الذين يشكون من مس الشياطين الذي يصيبهم أو الذين يعيشون أعمارهم في ذعر من كيد شياطين الإنس والجن لهم والمتمثل في أعمال السحر والجان .. أسائلهم لو عملوا بتلك النصيحة التي وجهها الرسول لإبن عباس : « إحفظ الله يحفظك » .

هل توجد في الوجود قوة يلجأون إليها لتحميهم خير من تلك القوة التي تتضمنها تلك النصيحة ؟!؟!...

وكما أن تقوى الله هي السياج الذي يحفظ المؤمن من شرور نفسه وغيره فهي أيضًا القوة الدافعة التي تخرج به من كل ضائقة وبلية وهي أيضًا سبيله الإيماني المتين إلى الرزق وأي رزق هذا ؟ إنه الرزق الذي لا يخطر على باله إتيانه من أي طريق من الطرق التي يقيم عليها حساباته أي رزق هذا ؟ .

﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ .

أي طمأنينة تبعثها في نفس المسلم هذه الآية !.

وهل يحتاج الإنسان لإي سند آخر أو عون من أحد إذا كان الله هو حسبه ؟!

لقد قُضِي الأمر ! .

إذا أردت أن يكون حسبك الله فتوكل عليه فأي قوة يحملها المؤمن بين جوانحه إذا كان حسبه الله .

لذلك قال الرسول ﷺ : « إذا أراد أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله »

وفي وصيته لإبن عباس قال ﷺ فيما معناه : « وإذا استعنت فاستعن بالله وإذا توكلت فتوكل على الله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لن ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ولو اجتمعت على أنْ يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

إنها القوة التي تجعل من يحملونها لا يرهبون أحداً غير الله مهما جمع لهم الناس وحشدوا لهم الحشود وحذرهم آخرون .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ .

أما أذا قيل أن هذه هي أمريكا وما أدراكم ما أمريكا ؟ وهذه هي إسرائيل وما أدراكم ما إسرائيل ؟ فاخشوهم فخشيناهم فإن ذلك نفيًا للإيمان ودليل على إفتقاد التوكل .

لابد أن يتيقن المسلم أن إرادة الله هي النافذة في الكون « إن الله بالغ أمره » على الرغم من أنف شياطين الإنس والجن . وماذا من الممكن أن يكون شأن هؤلاء بالنسبة لإرادة الله إنه لا شئ على الإطلاق ..

إذن فما السر وراء ما يحدث في الكون ؟ ما السر وراء تمادي هؤلاء وهؤلاء في غيهم وعلوهم في الأرض هناك أسراراً كثيرة وراءها حكمة عظيمة .

من أهم هذه الأسرار هذه الكلمة التي يعلمنا الله إياها : ﴿ قد جعل الله لكل شئ قدراً ﴾ .

فليست الأمور على هواى أو هواك وقد ﴿ خلق الإنسان عجولاً ﴾ .

ولكن الأمور تجري بمقادير قد لا نعي نحن الحكمة من وراءها قد لا نعي الحكمة من وراء تقديم أمر أو تأخير آخر ولكن كلما تقرب المسلم إلى ربه كلما هداه إلى سبيل الرشاد فاستطاع أن يعي كثيراً من الحكم التي تنتطوي عليها هذه المقادير .

* * *

الصبر

﴿ واصبر على ما أصابك إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ .

هكذا أوصى لقمان الحكيم إبنه .. فبقدر ما يمتلك الإنسان من قوة الصبر بقدر ما تتحدد قدرته على الصمود في أي صراع .

وفي الحقيقة فإن قوة الصبر تستمد أساسًا من قوة الإيمان .. فهي مرآة صادقة لما يحمله الإنسان من إيمان داخلي ، ولذلك فابتلاءات الله للإنسان تكشف عن حقيقة هذا الإيمان بمدى ما يواجه به هذه الإبتلاءات من صبر. يقول الله تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴾ [محمد : ٣١]

﴿ أحسب الناس يقولون أمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ .

[العنكبوت : ٢ ، ٣]

ومع أن الله عليم ببواطن الأمور إلا أن الإنسان يحاسب على تحقق هذا العلم فيما اتخذ من سلوك وتصرفات وهو ما تشهد به أعماله عليه يوم القيامة .

وهذا هو أصل ما ألفه الناس في حياتنا العادية بقولهم لمن أحسوا فيه الإيمان : أصبر . أنت رجل مؤمن .

لأن الذي يؤمن بأن الله بيده ملكوت الأمر والذي يحيا عمره راجيًا الآخرة لا الدنيا تكون النتيجة المنطقية لموقفه هذا أن تهون عليه شئون الدنيا فلا يجزع لما فاته من مكاسب ولا يضعف لما أصابه من نوازل .

إقرأ معى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ .

نعم إذا كان الأمر كله لله (ومن له الأمر غيره) فإنه ليس أمامنا إلا الصبر .. ومادمنا راجعون إليه فهو أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وهو الذي وعدنا ـ ومن أصدق وعداً من الله ـ بأن لنا رضاه والجنة على هذا الصبر فكيف بعد ذلك كله لا نصبر .

وبقول أكثر دقة فإن الصبر هو التطبيق العملي لما يحمله الإنسان من إيمان داخلي . ومن هنا كانت تقسيمات الصبر هي نفسها التقسيمات التطبيقية العملية للإيمان فالصبر صبر على الطاعة .. وصبر على المعصية .. وصبر على النوازل .. وهي نفس المناحي العملية للإيمان والإبتلاءات المستمرة هي تدريب للمؤمن على قوة تحمل صبره .. ومن ثمّ فهي مدارج له للصعود بإيمانه إلى منازل العلى والتقرب إلى الله وعندما سئل الرسول ﷺ أي الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الناس على قدر دينهم فمن اشتد دينه اشتد بلاؤه ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه وإن الرجل ليصيبه حتى يمشي على الأرض ما عليه خطيئة » [رواه ابن حبان] .

وعنه ﷺ أنه قال : « من يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » [متفق عليه] .

وعنه أيضاً ﷺ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوما إبتلاهم فمن رضى فله الرضى ومن سخط فله السخط » .

[رواه الترمذي وقال : حديث حسن]

وعنه أنه قال ﷺ : « الصبر ضياء » نعم إن أعظم السبل نفاذا إلى الحقيقة في هذا الكون هو تحمل الآلام وهذا هو التفسير الحقيقي لهذا الحديث الذي حمل بين كلمتيه حقيقة من أعظم حقائق الوجود .

يقول الله تعالى : ﴿ واستعيذوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

فإذا كان الله مع الصابرين فأي قوة في الأرض تستطيع هزيمتهم ؟

* * *

الزهد والعمل

ما الذي يضعف الإنسان في أي صراع ؟

الإجابة غاية في البساطة : حرصه على الدنيا .

حرص الإنسان على التمسك بالحياة هو الذي يجعله ينهزم وينكسر في المواقف الحاسمة . ولذلك فقد كان قواد المسلمين من أمثال خالد بن الوليد يرهبون أعداء الله بقولهم « جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة والخمر »

وعندما أخبر الرسول الصحابة بأنه « سيأتي زمن توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها » فقال قائل « أمن قلة نحن يا رسول الله قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدورعدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت » .

إن سلاح الشهادة سلاح لا يمكن أن يضاهيه أي سلاح تمتلكه أمريكا أو إسرائيل .

وسلاح الزهد قوة لا تستطيع صراعات الدنيا إحناء رأس من يحملها .

أما إذا كانت تمتلكك الرغبات في النيل من متع الدنيا فاعلم إنك مهزوم لا محالة .

والهزيمة التي نقصدها ليست الهزيمة من منظور المفاهيم النفعية الشائعة ولكن من منظور الوعي الإيماني وهي تعني تفريط الإنسان في

مفاهيمه ومبادئه الإسلامية وتحوله إلى المعسكر الآخر من البشر معسكر الأشخاص الدنيويين النفعيين الذين لا يستهدفون من حياتهم إلا تحقيق أكبر قدر من الأرباح وإصابة المتع والملذات .

وكون هذه الأشياء غير مستهدفة من الإنسان الرباني فلا يعني ذلك أنها محرمة عليه أو مكروهة في حقه غاية ما في الأمر أنها لا تمثل شيئا فى تحديد مسعاه ولا تشكل خطراً على إنشغال قلبه بذكر الله والآخرة فإذا توفرت له مع ذلك فلا يوجد أي مانع ديني يحول بينه وبينها .

وكثيراً ممن يتحدثون عن الزهد في الإسلام ويرغبون الناس في الفقر يتجاهلون أن كثيراً من الأنبياء والصالحين الذين ذكرهم القرآن كانوا ملوكا أو إمتلكوا الكثير من الثروات العظيمة ولكنهم أقاموا حكم الله فيها مثل يوسف وداؤد وسليمان وأيوب صلى الله عليهم وسلم أجمعين وذي القرنين وجالوت .

ولابد من الإستقلال لتحقيق القوة في مواجهة الآخرين وتحقيق الإستقلال مرهون بالعمل وكما جاء في الحديث « ما أكل ابن آدم قط خير من عمل يده » .

والعمل بذاته هو نوع من الزهد .. الزهد في الراحة والإسترخاء والزهد في التأنق والتكلف والإبتعاد عن مظاهر التنعم التي تقوضها مشاق العمل .

والمؤمن يتغلب على إحتياجاته الملحة بجهاده في الحياة بالعمل المتواصل ويستطيع المؤمن من خلال الجهد الزائد والعمل الأكثر والإنفاق

غير المسرف أن يتفوق في تحقيق القوة الإقتصادية على كثير ممن يمارسون الأعمال السهلة غير الشرعية .

أي تحكم حياته هذه القاعدة : عمل أكثر إنفاق أقل .

وكما ذكرنا وسنذكر في أكثر من موضوع فأنه لا تعارض بين تحقيق هذه القوة والزهد في الدنيا وإنما ما يجب على المسلم في هذا العصر هو أن يحرر قلبه من الدنيا ويمتلكها في يدية كقوة لها وزنها في صراعه مع الحياة .

أنت تقدم الآخرة على الدنيا .

أنت لا تستهدف من حياتك تحقيق الثروات والمتع والملزات .

أنت تستقل بنفسك في تلبية احتياجاتك .

أنت لا تحتاج إلى ما عند الناس بل قد تضاهيهم فيما يملكون من قوة إقتصادية .

إذن فأنت قوي ولن تنكسر لأحد .

* * *

إمتلاك القوة المادية

لا شك أن الصراع يحتدم الآن في الواقع المعاصر بين الإنسان الرباني والإنسان النفعي (البراجماتي) الذي يجد في نمط التفكير الأمريكي المرجعية المذهبية له . ولقد استطاع هذا الأخير أن يكتسح مواقع خصومه مثل الإنسان الماركسي والإنسان الوجودي والإنسان القومي ولم يبق على الساحة أحد يمثل قلقًا للهيمنة الأمريكية على العالم ونموذجها النفعي البراجماتي إلا نموزج الإنسان المسلم المتدين الواعي أي نموذج الإنسان الرباني الذي نتحدث عنه في هذا الكتاب .

إنه الصراع الآن بين الإنسان الرباني الذي تنطلق كل أفعاله من إستهداف مرضاة الله وثواب الآخرة والإنسان النفعي الذي تنطلق كل أفعاله من استهداف أكبر معدل من الربح .

ولأن الإسلام دين واقعي فلابد من الإعتراف بأن عجلة السيطرة المادية وما تحققه من مكاسب مستمرة هي القوة الأرضية المادية العظمى التي تقود في هذه المرحلة الراهنة عجلة الأمور في الواقع الذي نحياه .

هل يعني ذلك الاعتراف أن الإنسان الرباني منهزم لا محالة (حتى بالمعايير العامة) أمام الإنسان النفعي ؟!

طبعًا من غير الحقيقة قول ذلك .

غاية ما في الأمر أنه لكي ينتصر الإنسان الرباني فإنه يجب أن يكون إنسانًا ربانيًا حقًا لا جزئيًا ولا مزيفًا أي أنه يجب أن يأخذ بشروط الربانية الحقة ويتمثلها في كل سلوكه وأفعاله :

والقاعدة العظمى التي أرستها الربانية للإنتصار في أي صراع هي ما جاء في هذه الآية الكريمة ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ .

وهكذا جاءت كلمة (قوة) مجردة من أي قيد وعامة غاية العموم بحيث تتسع لتشمل كل قوة روحية ومادية على السواء .

والإنسان الرباني مطالب بامتلاك وإعداد ما يمكن إستطاعته من هذه القوى الروحية والمادية على السواء . إن إمتلاك القوة الإقتصادية أمر يوجبه الإعداد الذي أمرنا به القرآن ولكن ليس باستهداف التهافت وراء تلبية الرغبات والغرائز والتطلعات المادية ولكن بهدف التمكين في الأرض وإعلاء كلمة الله « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

كفى سذاجة فإن الزهد في الماديات وطرحها جانبا لن يخدم إلا أعداء الله وليس دين الله . ثم ما هو المعنى الحقيقي للزهد ؟ هو أن تملك وتقدر وتستطيع ولكنك تزهد في كل ذلك بتفضيل الآخرة على الدنيا .

أما إذا كنت لا تملك ولا تقدر ولا تستطيع فإن إدعائك الزهد إدعاء واهي تحاول أن تتستر به على عجزك .

نريد أن نمتلك بقدر الإستطاعة القوة المادية الفاعلة في هذا الصراع لأن هذا ما أمرنا الله به . بدلاً من التهاون في العمل على إمتلاكها ومن ثم قبول الهزيمة المحتومة والإنحدار إلى ذيل التحكم في هذا الوجود فكيف سنجعل كلمة الله هي العليا ؟ كيف سنجعل الحاكمية لله في هذه الأرض إذا كنا نحن لا نملك من أمر أنفسنا شيئا بينما الماديون لهم

السلطة العليا في توجيه مسار حياتنا بإمتلاكهم تلك القوة الإقتصادية ذات السطوة العليا في هذا الزمان ؟! والذي يمتلك هذه القوة هو المسلم الواقعي الواعي بحقائق دينه وواقعه على السواء .

نعم لابد أن تحرر من الدنيا قلبك ولكن إذا كانت القوة الإقتصادية لها سطوتها الحاسمة في هذا العصر فلابد أن تمتلكها يداك .

ويظل الفرق الكبير حاسما بين الإنسان الرباني الذي يمتلك تلك القوة من أجل التمكين لدين الله في الإرض وجعله كلمة الله هي العليا والإنسان النفعي الذي يمتلك تلك القوة من أجل إرضاء سعيه في تحقيق أكبر قدر من الإرباح وأصابة أكبر قدر من المتع والملذات .

* * *

الصدق والاستقامة

يقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾

ويقول الرسول ﷺ : « إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ، وأن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وأن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا » [متفق عليه] .

وحين سأل هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ ماذا يأمركم قال أبو سفيان يقول : « اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول أباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة » [متفق عليه] .

ومن تعاليم الإمام الشهيد حسن البنا التي يصي بها المسلم :

« * أن تكون صادق الكلمة فلا تكذب أبداً .

* أن تكون وفيًا بالعهد والكلمة والوعد فلا تخلف مهما كانت الظروف .

* أن تكون شجاعًا عظيم الاحتمال وأفضل الشجاعة الصراحة في الحق وكتمان السر والاعتراف بالخطأ والانصاف عن النفس ومِلكها عند الغضب »[1] .

إن الصدق قوة ولا يلتجئ إلى الكذب إلا الضعفاء .

والالتزام الدائم بالصدق هو تدريب للنفس على القوة .

---

(١) رسالة التعاليم : ص ٢٤ .

والتعود الدائم للكذب يؤدي إلى إفقاد النفس لدعائم القوة .

إن الإسلام لا يعرف إلا الاستقامة .

الاستقامة في انتهاج تعاليم الله وعدم العدول عنها استناداً إلى أي مبرر .

الاستقامة في الوعي بأحداث الحياة واستخلاص العبرة منها .

الاستقامة في السير على طريق الحقيقة وعدم التهاون في إحقاق الحق وإبطال الباطل .

الاستقامة في الاحتفاظ بعزة النفس وكبريائها والحفاظ عليها من الشروخ والتصدع ومن ثمّ من الانهيار .

والاستقامة أيضًا في الرفق واللين والمرونة في الظروف والمواقف التي تقتضي ذلك .

إن إحقاق الحق وإصحاح الصحيح مهما نتج عنه من خسائر مبدئية فإنه لا يمكن مقارنة خسائره بالخسائر التي تنتج عن التضحية بالحق والتهاون مع الباطل بسبب الخوف أو حفاظًا على علاقة ما أو حفاظًا على عدم إصابة أحد بمكروه .

ونحن حين ندعوا إلى هذه الاستقامة لا ندعو إلى أمر تحسيني يقبل المناقشة والجدل أو الاعتذار عنه من أجل الحفاظ على أمور أكثر ضرورة وإنما ندعوا إلى أمر يستحيل إفتقاده لدى المسلم الحقيقي .

واستقامة المسلم في سلوكه أمر يجسد حقيقة إيمانه وقدرته على الإستقلال والحرية والتمرد على ضغوط المفاهيم الجاهلية السائدة التي

يدعمها طاغوت القهر الاجتماعي . فالمسألة غير قابلة للمساومة فإما أن تكون مسلمًا حقًا فتنتهج طريق الاستقامة في وعيك وسلوكك وتتمرد على كل هذه المفاهيم وتحافظ على استقلال ذاتك وسلامتها من الخوف والتخاذل ، ومن ثَمَّ ، من التمزق والشروخ والتصدعات وإما أن تكون واحداً من أفراد قطيع ذلك المجتمع الجاهلي تظل تتغاضى عن تمزقات نفسك حتى تصير معد تمامًا للذبح والالتهام في أي لحظة .

ونحن لا نعني بذلك عدم المرونة مع الأحداث ولكن على الإنسان أن يعي أن المرونة في هذه الأمور يسمح بها فقط في دائرة الأمور المؤقتة وعند ذلك فقط تحسب القواعد الشرعية في المصلحة في الترجيح بين أقل الضررين . الضرر الناتج عن التهاون في الحق ، والضرر الناتج عن التمسك به بحزم دون أن يعني ذلك ـ كما يفعل الكثيرون ـ التهاون في حقوق تبدو بسيطة الآن من حيث الأضرار التي ستنتج عن التهاون عنها بينما يترسب عن ذلك على المدى البعيد إهدار لحقوق أخرى أكبر منها أو أن يؤدي ذلك التنازل المستمر في الصراع القائم بين الحق والباطل إلى أن يطمس الحق تمامًا وينصر عليه الباطل بشكل نهائي أو أن تضيع الحقوق وتنتهب بلا رجعة أو أن تستسلم النفوس لمصيرها في الإنكسار والتصدع بلا أمل في إصلاح ما قد فرطت فيه منذ البداية .

* * *

صراع القيم الإسلامية في الواقع المعاصر

وإذا قال لي البعض أننا لا نستطيع أن نواجه تحديات ذلك الواقع الذي نعيشه وندخل في صراع مع أصحاب تلك القيم النفعية المسيطرين عليه ونحن نحمل تلك المفاهيم والقيم التي تتحدث عنها في كتابك هذا.

أقول لهؤلاء : إنكم لصادقون .. فأنتم حقًا لا تستطيعون حمل تلك المفاهيم والقيم ومعايشة أصحاب القيم النفعية على أساسها.. بله تحديهم بها ولكن هذا لا يرجع لعيب في قدرة هذه المفاهيم والقيم على المعايشة والتحدي والإنتصار ولكن ذلك يرجع إلى ما وصل إليه حال نفوسكم من ضعف ووهن إن تلك المفاهيم والقيم لا يستطيع أن يحملها ويتدرعها سلاحًا إلا من أقام حقيقة وجوده على ركائز القوة في الإسلام فهل أنتم امتلكتم الإيمان الحقيقي بالله ؟ هل شعرتم دائمًا أنه أقرب إليكم من حبل الوريد ؟.

هل تقربتم إلى الله بالعبادة والدعاء واستعنتم به في كل أموركم ؟ .

هل حفظتم الله كي يحفظكم ؟ .

هل توكلتم على الله كي يكون حسبكم ؟ .

هل جعلتم رضا الله غايتكم وقدمتم الآخرة على الدنيا ؟ .

هل تدبرتم سنن الله في الأرض وأخذتم بالأسباب في كل أعمالكم؟ .

هل أعددتم لأعدائكم كل ما استطعتم من قوة ؟ .

هل رضيتم بالقليل الذي يستر حاجاتكم ويغنيكم عن المسألة ؟ .

هل زهدتم في كل فضل يزيد عن حاجاتكم من متاع الدنيا ونظرتم إلى زينتها نظرة العالم المتيقن من مآلها المزرى .

هل حاولتم التفقه والتعمق في أمور دينكم ودنياكم .

إذا لم تكونوا قد فعلتم شيئًا من ذلك فإنه لن ينفعكم في شئ حملكم لتلك المفاهيم والقيم التي أتحدث عنها ولهذا فأنتم مهزومون لا محالة .

وهل من الممكن التشكيك في تلك المفاهيم وقدرتها على مواجهة تحديات الواقع المعاصر والإنتصار عليه مادامت مستمدة من هدى الله .

إن أى تشكيك في ذلك هو نفي لإيمان الإنسان ، ولكن لا تظهر قدرة هذه المفاهيم والقيم على المواجهة والإنتصار إلا لدى من أعتصموا بحبل الله وتحصنوا بتعاليمه .. أما من لم يستطيعوا أن يتحرروا من أسر معتقداتهم الجاهلية الباطلة .. أما من لم يستطيعوا أن يتحرروا من كبر أنفسهم وصلفها الذي يهوى بهم أرضى أرضين وأسفل سافلين .. أما من لم يستطيعوا أن يتحرروا من شهوات الدنيا ومطامعها فإنهم لا يستطيعون حقًا حمل هذه المفاهيم والقيم ومواجهة أصحاب القيم النفعية بها .

* * *

٢ - الوعى الإيمانى
فى مواجهة
الوعى الزائف

هل نستمد قيمنا
من اللـه
أم
من الطاغوت

هل نستمد قيمنا من الله أم من الطاغوت ؟ !

الله أكبر من كل قوة .

الله أكبر من كل خوف .

الله أكبر من كل سلطة .

الله أكبر من كل وهم .

الله أكبر من أي إنكسار .

الله أكبر من أي هزيمة .

الله أكبر من كل شئ .

لاإله غيره ولا معبود سواه .

هو الخالق من العدم وهو الواحد الفرد الصمد .

هو المعين وهو الرحيم وهو الرازق المعطي الكريم .

إياه نعبد وإياه نستعين .

وإياه وحده نطيع .

ولا حاكم لنا سواه .

خلقنا أحراراً وجعل رضاه في إفراده بالعبودية .

جعل رضاه في ﴿ لا إله إلا الله ﴾ .

جعل رضاه في تمسك الإنسان بتلك الحرية .

وجعل غصبه في التفريط فيها لأي متألة كاذب مذعوم .

جعل رضاه في طاعته وحده .

وجعل غضبه في إذلال الإنسان لنفسه بطاعته لسواه .

جعل حرية الإنسان بإفراده وحده بالعبودية هي الإيمان .

وجعل إنسحاق الإنسان بالرزوخ في عبودية غيره هو الشرك .

لا قيد للإنسان في هذا الوجود إلا قيداً وضعه الله .. ولا حداً لانطلاق حريته إلا حداً وضعه الله .. ولا حرام في هذا الوجود إلا حرامًا حرمه الله .

إنني دائما أتسائل :

إذا كان الله قد أحل شيئًا فمن في هذا الوجود يملك تحريمه إذا كان الله لن يحاسبه على هذا الفعل ؟!!! ...

ما يريده الله هو المعيار الوحيد للحكم على الأشياء .

فلا تقل لي لا تفعل هذا الشئ هذا عيب هذا أمر يأباه المجتمع هذا أمر يصطدم مع التقاليد والعرف وهذا أمر لا يتفق مع (البريستيج) قل لي شيئًا واحداً هل هذا الشئ حلال أم حرام فإذا لم يكن هذا الشئ حرامًا فلا يحق لك أبداً أن تنهاني عن فعله .

هناك مطلع لأحد الأناشيد التي يرددها الإسلاميون يقول :

لا نؤمن أبداً بحدود ∴ لا نخضع أبداً لقيود

إن هذا المطلع يعبر تعبيراً رائعًا عن حقيقة موقف المسلم الواعي من كل القواعد والقيم الموجودة في العالم . ومن المفهوم طبعًا أن المقصود هو أننا لا نؤمن أبداً بحدود ولا نخضع أبداً لقيود غير الحدود والقيود المستمدة من ديننا .

وهذا الذي ذهبنا إليه ليس إجتهاداً لنا وإنما هو ما أعلنه القرآن بكل صراحة وحسم .

﴿ أفغير الله أبتغي حكمًا وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً ﴾ .

﴿ أم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ [الشورى ٢١].

﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا وإليه يرجعون ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ﴾ .
[يوسف : ٤٠]

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون ﴾.
[المائدة : ٥]

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ .
[النساء : ٦٠]

﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ [النجم : ١٢٣] .

﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ .

﴿ ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ .

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا ﴾ .

فأي حدود إصطنعها البشر أو توهموها يمكنها أن تحد من تصرفاتنا أو في سلوكنا .

أو أي قيود من الممكن أن تخضع لها إرادتنا وتصيبها بالعجز والشلل أو الإنهزام والتخاذل إذا لم يكن الله الحاكم الوحيد للوجود هو الذي وضع هذه القيود ؟! .

إن قوة الإنطلاق الإيماني تبدأ من هنا .

[الإستسلام التام لأحكام الله والتمرد التام على كل أحكام وأوهام البشر] .

وتمرد المسلم على كل هذه الأحكام والأوهام والخرافات التي يريد أن يجبره المجتمع عليها هو جهاد له ضد الطاغوت .

* * *

المفاهيم والقيم الإسلامية والأعراف والتقاليد السائدة

المفاهيم والقيم الإسلامية
والأعراف والتقاليد السائدة

هناك مفاهيم زائفة أُلصقت بالإسلام منذ أزمنة قديمة حتى أن الكثير من الناس ـ إن لم يكن أغلبهم ـ يعتقدون أنها تمثل الإسلام بينما هو منها براء .

ومصيبة المصائب أن هذه المفاهيم التي تعادى إنسانية الإنسان وتعوق أى تقدم حضارى له ، تحسب من جانب أعداء الإسلام عليه ويستغلونها فى تشويه صورته الإنسانية أمام شعوب العالم .

لذلك فإنه لا يجدى مع هذه المفاهيم مجرد الحوار الفكرى ، وإنما يجب لتحديها حدوث الإنفجار الفكرى .

وهذا الإنفجار الفكرى المطلوب إن كان شديد الصعوبة في نطاق الحياة الفكرية ، فإنه بالغ الخطورة والصعوبة فى نطاق الحياة الإجتماعية. إن مخالفة المألوف أمر ليس بالهين ولا بالبسيط ولكن يمكن تمثيله بنوع من المعارك . والقاعدة الراسخة فى ذلك يعبر عنها المثل الشعبي (إللى يخالف المألوف يستاهل ضرب الكفوف) .

فمحاربة المألوف لا تجلب عليك محاربة أعدائك فقط ، بل غالبا ما ينتج عنها تخلي الكثيرين من أصدقائك عنك ، بل وتحولهم إلى أعداء .

إن مجرد مخالفة الإنسان لما هو شائع من الأمور يجعل المجتمع يحكم على سلوكه بأنه خطأ أو حرام .

وإستمرار هذه القاعدة في مجتمع ما يعمل على ترسيخ الجهل والإنحطاط وكافة المساوئ الإجتماعية المدمرة .

فكيف يكون السلوك الشائع في مجتمع يعاني من الجهل والفساد والظلم هو السلوك الصحيح . فلا شك أن السلوك الشائع في مجتمع جاهل وظالم وفاسد هو سلوك جاهل وظالم وفاسد أيضًا وعلى ذلك فإن السلوك الصالح الذي يجب أن ينشده هذا المجتمع لكي يخرج من أزمته لابد أن يكون سلوكا غريبًا عما آلف من سلوكيات فاسدة .

والتقيد بالمفاهيم الإجتماعية في السلوك والعادات والتقاليد منه ولكنه أيضًا أمرٌ مناقضٌ للتطور الحضاري للبشر ولذلك فإن الأوربيين يعتبرون التقيد بمثل هذه الأمور ضربًا من الجنون وتعبيراً صريحًا عن مدى التخلف العقلي والإجتماعي لأنه ليس من المعقول أن يتخلى الأنسان عن أمر فيه صالحه لمجرد أنه سوف يتسبب في استياء المجتمع لأن سلوكه غير شائع إجتماعيًا ؟!...

ونحن لا نقصد بذلك محاربة المألوف في ذاته ، لأن المألوف أو العرف يكون مقبولاً إذا كان يتعرض لتفاصيل حياتية تختلف بأختلاف البيئات والأحوال والأماكن والأزمان . ولم تكن مخالفة في شئ من ذلك لشرع الله أو مفاهيم وقيم الأسلام أو حتى الروح العامة له .

أما إذا كان المألوف والعرف هو مجرد إعتقادات شركية كالأعتقاد بقدرة الأولياء والأستعانة بهم والتمسح بأضرحتهم أو تصورات جاهلية خرافية كالتطير والتشاؤم من بعض الأشخاص أو الطيور أو الحيوانات ،

أقول إذا كان المألوف أو العرف هو شيئا من ذلك فإن ضرورة محاربته هوأمر حتمي لا مفر منه .

وإذا كان المألوف أو العرف يمثل قهراً لإنسانية الإنسان وحريته مثل الخضوع لظلم الظالم أو السكوت على الباطل المدجج بالقوة أو المبالغة في سلطة من السلطات مثل سلطات الأخ الأكبر مثلا إلى الدرجة التي يسلب فيها أموال باقي إخوته ويتحفظ على إرادتهم ، فإنه يجب أن يواجه بنفس الموقف السابق .

وإذا كان المألوف أو المعروف هو الحرمان الأجتماعي للأرملة أو المطلقة من حقها الشرعي في الزواج بحيث يجعل الزواج منها أمراً مشينًا أو يجعل عزوفها عن الزواج مجداً أجتماعيا مزعوما ، فإن أنسب مكان لذلك العرف هو الجحيم .

وإذا كان العرف هو أن لا يتزوج الإبن الأصغر قبل الأبن الأكبر أو البنت الصغري قبل البنت الكبرى ، أو لا يقدم لفتاة ما مهراً للزواج إلاّ بنفس القدر الذي يقدم لقريباتها ، وكذلك التقاليد التي تجمع بين الإعتقادات الجاهلية الباطلة وبين تبديد طاقات الإنسان وتكبيل حريته مثل الذكرى الأسبوعية للميت وذكرى الأربعين والذكرى السنوية .. وفرض الأحزان فرضا على الأهل والأقارب والوقوف في وجه ما أحله الله من الطيبات وخصوصا ما يتعلق بعقد العقود وإقامة الأفراح .

وكذلك الأعراف والتقاليد التي تجعل كبار السن منفردين وحدهم بإدراك الحقيقة والحكمة والتمتع بالسلطة وتوجيه دفة الأمور في المجتمع

وإن إمتلأت نفوس الكثيرين منهم بالشروخ والتصدعات التي أصابتهم بها كثرة هزائمهم في الحياة وإجتمع فيها الجهل والشيخوخة والعجز والإحباط وهو ما له أثره الكبير على آرائهم ومواقفهم التي تتسم عادةً بالجهل والسلبية .

إنها آراء(العواجيز) التي كم تحكمت في القرى والنجوع والأحياء والضواحي فأطفأت براكين حماس وعطلت برامج إصلاح وميعت قضايا وحقائق وأحنت رؤوسا غراء وأقرت مظالم وحرمات ومهدت بوجه عام الأرض للظالمين يعيثون فيها فساداً .

أما إذا إجتمع العلم مع خبرة السنين في رجال أشداء أكسبهم تحديهم وصمودهم لنوازل الأزمان الحكمة والصلابة والشموخ فنعم القادة والقدوة هم وما أندرهم .

وكذلك العادات والتقاليد التي تشغل كاهل الناس بما لا يطيقون ، أو تعقد العلاقات المقامة بينهم ومع ذلك يرضخون لها على الرغم مما يصيبهم بسببها من خسائر .

مثال ذلك ما يتحمله أولياء الأمور من نفقات أوجبتها المناسبات التي يحتفل بها المجتمع بشكل إستهلاكي مثل رمضان والعيد والمولد النبوي . وكذلك ما يتحمله الخاطب من هدايا ونفقات في تلك المناسبات والمناسبات الشبيهة لها ، هذا ناهيك عن المبالغة في التكاليف الأساسية للزواج نفسه .

وكذلك فهناك الأعراف السائدة التي تبالغ في حقوق معينة وتعمل على التوهين من حقوق آخرى فتؤدي إلى إستبداد أصحاب الحقوق

الأولى وإستعباد أصحاب الحقوق الثانية مثل المبالغة في حقوق الحاكم والتوهين من حقوق المحكوم والمبالغة في حقوق الزوج والتوهين من حقوق الزوجة .

وإذا كانت الحقائق والإعتقادات والقواعد الحاكمة للعلاقات الأساسية في المجتمع وكذلك معايير الصح والخطأ ، والنافع والضار ، والنجاح والفشل ، والضوابط الأساسية لتحديد القيمة الأجتماعية للآخرين كل ذلك يستقي من النساء المتقدمات في السن بما يترسب داخل نفوس أغلبهن من عقد وخرافات ومفاهيم جاهلية ، فهل من الممكن أن ننتظر من أبناء هؤلاء أن يقودوا مجتمعنا إلى الصحوة الحضارية المنتظرة بينما اللاتي تقمن على تشكيل وعيهم الداخلي أمثال تلك السيدات .

وإذا كان المألوف أو العرف بوجه عام طرقًا نمطية في التفكير العقلي تعوق التطور الطبيعي في طرق التفكير وتحجب عن وعيه الرؤى الصحيحة ، فإن حركة تقدم المجتمع تكون رهنًا لمدى إصرارنا على نسف هذه المفاهيم والتقاليد والأنماط العقلية التي تعوق مسيرته

إنه قد يكون للإنسان هدف مصيري وقد يكون تحقيقه ممكنًا بمثابة ١ + ١ = ٢ هذا من حيث الدين ومن حيث الواقع ومن حيث المنطق ومن حيث القدرة .

بل قد يكون ضرورة تحقيق هذا الهدف بمثابة الحياة أو الموت بالنسبة لأطرافه وعلى الرغم من سهولة تحقيق هذا الهدف من كل الزوايا السابقة إلا أن البعض قد يجعل منه أمراً مستحيلاً !!.. لماذا ؟! .

لأن المجتمع يرى في ذلك أمراً غريبًا . أمراً شاذاً . لماذا ؟!.

لأنه ليس أمراً مألوفًا بالنسبة للمجتمع . بل أمر جديد أو ينـدر حدوثه !!!...

يا سبحان الله : اتجعلون الحلال حرامًا وما يحكم به العقل والمنطق جنونًا وما يجعل الواقع ضرورة تحقيقه بمثابة الحياة والموت أمراً هينًا . كل ذلك لسبب واحد هو أن هذا الأمر غير مألوف بالنسبة للمجتمع !!! ...

وأي عقول تلك التي يمكنها أن ترضخ لمثل تلك المفاهيم وتهدر أعمارها عبثًا من أجلها ؟!. ما أسخفها وما أضعف النفوس التي تحملها !!!...

ولعل من المفيد أن نوسع هنا من مفهوم التحرر من التقاليد هذا إلى أقصى حد ممكن ، فلا نكتفي بالتقاليد الأجتماعية ، ولكن بوجوب التحرر من كل الصور النمطية في التفكير العقلي . فالعامل الذي ينتج سلعة ما لابد أن يبحث عن وسيلة أكثر تطوراً لإنتاجها في شكل أفضل وأسرع أو بخامات أقل تكلفة أو بكل ذلك معا .

وبالنسبة للطالب فعليه أن يخرج من ذلك النمط التقليدي في إستيعاب دروسه ، وعليه أن يكتشف أفضل الوسائل التي يستطيع بها إكتساب أكبر قدر من المعلومات في أقل وقت ممكن ، فلا يكون تحصيل الدروس بالنسبة له مجرد قضاء وقت طويل أمام الكتب .

والمرأة التي تطهو الطعام لكي تكون إمرأة مختلفة عن غيرها من النساء الرقيقات عليها أن تبحث عن أفضل الوسائل في طهي الطعام في أقل وقت وأفضل جودة وأقل تكلفة .

أما استيعاب أفضل الوسائل لتربية الأطفال وإبتداعها والخروج عن النمط التقليدي للتربية المستمد من العرف الأجتماعي والذي يجمع مع حسناته القليلة الكثير من العقد والأمراض النفسية المترسبة والمفاهيم الجاهلية السائدة فإن ذلك أمر يحتاج إلى الكثير من البحث والجهود والدراسة .

وهذا التمرد على الأنماط التقليدية في التفكير تتضح أهميته عند التعرض لقضية ما أو لمشكلة من المشاكل . فهنا تتميز العقول الناضجة المتطورة عن العقول النمطية التي تنطلق من الأساليب التقليدية في التفكير .

إن المفهوم الشائع عن الإنسان الذكي العاقل أنه هو الشخص الذي إذا تعرض لمشكلة ما فإنه يستطيع أن يخرج منها بالحلول السليمة التي يتوقعها ويرضى عنها الجميع . بينما المفهوم الحقيقي للإنسان الذكي العاقل الواعي هو أنه الشخص الذي يستطيع أن يخرج بالحلول السليمة لمشاكل يكاد يستحيل حلها من وجهة نظر المجتمع ، وإذا تعرض لمشكلة تقليدية من النوع السابق فإنه يحقق فيها نتائج تفوق كثيراً ما يتوقعه منه التفكير النمطي للمجتمع .

* * *

موقف الإسلام من الأعراف والتقاليد

إن موقف الإسلام من الأعراف والتقاليد واضح وحاسم ، يقول الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم :

﴿ وإذا قيل لهم إتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ .

[البقرة : الآية ١٧]

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾

[المائدة : الآية ١٠٤]

﴿ ... ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (٢٠) ، وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ (٢١) لقمان .

﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حرامًا وحلالاً قل الله أذن لكم أم علي الله تفترون ﴾ .

فنحن إذا دعينا إلى الإعتراك مع المألوف فنحن ندعوا إلى الإعتراك مع تصورات ومفاهيم زائفة عن الإسلام ومواقفه من العلاقات الإجتماعية السائدة والتي ترسخت في أذهان الناس وكأنها مسلمات لا تقبل الجدل والنقاش بتطاول الزمان عليها .

يقول أحد أئمة المسلمين عن دعوة (لا إله إلا الله) أنها جعلت « الذين ورثوا التقاليد عن آبائهم واتبعوها وعكفوا عليها كأنها أوثان بنفسها أحسوا بالخطر الداهم على تلك العادات العريقة » .

بل أن هناك الكثير من السلوكيات الإجتماعية التى وإن يدرك الكثيرون مدى تجافيها مع الدين ، ولكن نظراً لإطراد صدورها عن الناس فقد فقدت ما كانت تقابل به من إستياء لديهم حتى صارت أمراً مقبولاً له مصداقيته الأجتماعية المصحوبه بأي مبرر يمكن إدعاؤه مثل الضرورة أو تغير العصر أو يسر الدين . وبمرور الأيام تصبح هذه الأمور المجافية للدين والتي كانت تقابل بالإستياء هي ذاتها قاعدة أجتماعية يواجه من يعتدي عليها بالإدانة والحرب من فئات المجتمع المختلفة .

والأمر سيصير أكثر تعقيداً عندما تجتمع مع تلك المفاهيم والتقاليد الجاهلية المفاهيم والقيم النفعية الغازية في دائرة الضغط الأقتصادي الطاحن .

فالنفعيون (البراجماتيون) الذين يتمثلون تلك القيم سيعملون على تدعيم المفاهيم والتقاليد الجاهلية التي تتفق مع مصالحهم . ومن الطبيعي أن يكون من مصلحة هؤلاء أن تتحكم في عقول الناس الخرافات والأوهام التي تطمس قدراً كبيراً من وعيهم ، وبذلك يسهل إنقيادهم إلى الأهداف التي يسعى إليها . كما أنه من مصلحة هؤلاء أيضا أن تتحكم في سلوكيات الناس تلك العقد الأجتماعية التي ما أنزل الله بها من سلطان والتي لها أثرها الكبير في نفوسهم وتقييد

إرادتهم وإعاقة حركاتهم ، وبذلك يكونون هم السابقين إلى أي غاية يشتركون مع الناس في الراع عليها .

ولذلك تجد في هذه الأوساط التي تختلط فيها المفاهيم النفعية بالتقاليد الأجتماعية البالية أن هؤلاء النفعيين يقيمون حروبا شعواء إذا أراد أحدٌ أن يكسر تلك التقاليد ولم تكن لهم مصلحة يبغونها هم . فإنهم يدوسونها بالأقدام .

أي أن النفعيين يستغلون تلك التقاليد في محاربة الناس ومحاكمة السذج منهم بها ، أما بالنسبة لهم فإن الحفاظ عليها أهون عليهم من تفويت غاية يبتغونها ويا ضيعة المغفلين الذين يستسلمون لتحكم التقاليد في مصائرهم في هذا الزمان .

أما الظروف الأجتماعية الطاحنة وما نتج عنها من إنكباب الناس حول توفير أشد الحاجات المعيشية الضرورية لهم ، فقد أدت إلى سقوط الناس في غمرة الغياب العقلي وفقدان القدرة على التعلق بأي أمر من الأمور لا علاقة بتلك الحاجات المعيشية الملحة والتي لا تخرج في الغالب عن توفير المأكل والمشرب والمأوى .

وهذا الغياب العقلي أدى بدوره إلى أشياء غاية في التعقيد والتناقض نتيجة التردي اللاواعي لمفاهيم جعل منها الإعلام الموجه تقاليداً ثابتة وأوضاعًا ذات شرعية إجتماعية مؤكدة ، فترى مثلا طبقات أجتماعية يفترض فيها الوعي العقلي مثل خريجي الجامعات يدافعون عن مفاهيم وتقاليد أجتماعية رائجه ليس فقط ما أنزل الله بها

من سلطان ، ولكنها تتناقض تناقضا صارخا مع مصالحهم فكأنهم صاروا بذلك أعداء لأنفسهم .

والإسلام الحقيقي يعني التسليم التام لله في كل الأمور ، أي التسليم لمفاهيم الإسلام وتعاليمه وشرائعه والذوبان فيها لكي تعيد تشكيل الإنسان تشكيلاً جديداً مستقلاً ومتناقضاً مع الواقع الجاهلي النفعي الذي يحاصره الآن من كل الجهات .

وإمتلاك الإنسان لهذا التكوين الإسلامي الحقيقي مع إمتلاكه للوعي الناضج بمتغيرات العصر والقدرة على تجسيد الإسلام على ذلك الواقع المعايش تجسيداً راشداً ، بالإضافة إلى الإرادة الإيمانية الصلبة، كل ذلك يجعله بأي حال من الأحوال لا يقبل أن يكون مجرد فرد في قطيع من البشر الذين يشكلون ذلك المجتمع ويرتضون بما يحكمه من تقاليد وقيم مثلهم في ذلك مثل الشياةالتي ترتضي ما يقدم لها من كلأ وهي في الحقيقة تغذى لكي تساق إلى الذبح .

فضلا عن إستحالة إستقلال النفس عن المفاهيم والتقاليد الإجتماعية التي تفرض نفسها على كل أعضاء المجتمع ، فإن معاشرة الناس وتحمل أذاهم هو الأمرالأكثر صلاحا من وجهة نظر الدين نفسه ، لأن المؤمن الذي يعاشر الناس ويتحمل أذاهم خير من المؤمن الذي لا يعاشر الناس ولا يتحمل أذاهم كما جاء في الحديث النبوي . أي أن العراك مع هذه المفاهيم والتقاليد أمر حتمي لا مفر منه .

وإذا كانت هذه التصورات والمفاهيم والتقاليد الجاهلية بما تؤدي إليه من تشويه للدعوة الإسلامية النقية وإصابة سلوكيات المسلمين بالتعقيدات والإحباطات التي تعيق حريتهم وتصدع نفوسهم . فإن كل

ذلك يجعل التحدي الإجتماعي الذي ندعوا إليه لا يكون فرضًا دينيًا فقط ، وإنما جهاد بالقول والفعل والسلوك ، وهل يكون هناك جهادٌ بغير السيف أكبرمن جهاد تلك العقائد والتصورات والمفاهيم والتقاليد والقيم الجاهلية ؟!

وعلى ذلك ، فإن من يرد القيام بذلك التحدي الإجتماعي عليه أن يعي جيداً أن الأمر يعني الدخول في معركة شرسة يجب الإستعداد لها وقبول نتائجها وعقد العزم على مواصلة الجهاد والمثابرة فيها بدلا من أن يفاجأ على غير توقع منه بإعلان المجتمع الحرب عليه لمجرد تحديه لتلك لمفاهيم والتقاليد الإجتماعية .

وكون أن الأمر يعني الدخول في معركة تتطلب الجهاد فإن ذلك لا يعني أن التحدي الإجتماعي عمل ثوري إنقلابي حماسي لا يحسب للأمور حسابها ، لكنه عمل يتطلب من الذين يقبلون مشاق تلك المعركة التخطيط والترتيب والإعداد لها بحسابات خاصة غير تقليدية وفي نفس الوقت فإنه عمل يتطلب الإستعداد لبذل المزيد من الجهد والتضحيات وادخار أكبر قدر من التماسك وشحذ أكبر قدر من الجرأة .

فليس من المنطقي أن تحارب التقاليد بوسائل وحسابات تقليدية وإنما يجب في من يتحدى التقاليد أن يكون النمط العقلي لتفكيره أصلاً غير تقليدي . كما أن الأمر يتطلب أكبر قدر من الثقة بالنفس والإستناد على الإيمان بالله والتوكل عليه وعدم الإرتكان إلى الجهلاء أو إلى الذين ظلموا ، وإنما الإرتكان إلى أهل الوعي والتحدي من المؤمنين .

* * *

العلاقة بين السلبية والضعف والخمول والخضوع للأعراف والتقاليد

إرتضاء الإنسان الخضوع للتقاليد والأعراف التي تكبله بها كلمات الناس ونظراتهم عليه ، وكذلك خضوعه لكل ما هو عادي تقليدي يرتبط إرتباطًا وثيقًا بما تحمله شخصيته من خمول وضعف وخور وفتور وإفتقاد للجرأة والشجاعة ، وما تحمله من إنكسار داخلي وعجز إجتماعي ومحدودية ذكاء ، وهو ما يؤدي إلى الحنق والحقد والحرب الشعواء على الأقوياء الذين إستطاعوا تحطيم العوائق التي لم يستطع هؤلاء ، مجرد الطموح إلى الصراع معها .

فكيف من الممكن أن يكون مقبولا أن يجعل هؤلاء من أنفسهم حائلا أمام تقدم العباقرة والثوار والمصلحين ؟؟ وكيف يُرجى لمجتمع أن يتقدم إلى الأمام مادامت تحكم قواعده الإجتماعية تلك المفاهيم الباطلة التي يمليها العجز النفسي لهؤلاء ؟!

إن الذين يحافظون على التصورات والتقاليد الإجتماعية إما نفعيون يستغلونها لتحقيق مآربهم أو بلداء خاملون محدودو الذكاء يتصيدون الأخطاء للأقوياء وينفثون عن حقدهم بإعلان الحرب عليهم لتحديهم تلك التصورات والتقاليد الباطلة .

هذا ، ناهيك عن القاعدة التي تقول : «إن الناس أعداء ما جهلوا» .

إن الذين ظلموا الذين إرتكنوا إلى هذه المفاهيم الجاهلية التي تخدم مصالحهم لن يسهل عليهم ذلك التحدي ، إنه يدينهم ويكشف سوءات

نفوسهم ويفضح سوء عملهم الذي تستره سيادة تلك المفاهيم والتقاليد على الأوضاع الإجتماعية وكسبها المشروعية التي لا يجوز لأحد تحديها.

إن الذين يعيشون في اللا مشروعية الحقيقية لابد أن يتستروا في المشروعية الزائفة لتلك التقاليد الباطلة ، ولذلك فإنهم لن يدخروا جهداً في محاربة من يحاول تحديها .

والإنهزاميون من الناس لن يكون من الهين عليهم قبول غيرهم لذلك التحدي خصوصاً في الأمور التي تقرر القواعد الإجتماعية التقليدية تهام كل من يحاول تحديها بالجنون . إن ذلك لا يثير الحقد في قلوب هؤلاء فقط ، ولكنه يفضح ضعفهم الذي كان يتستر في كون التخاذل أمام هذه الأمور هو القاعدة العامة التي لا يستطيع أحد الخروج عنها .

والذي يحدث أن من يحملون الجهل والضعف إذا قبل من يحملون العلم والتحدي الحوار معهم فإنهم لن يكتفوا بذلك بل سيظلوا يتهمونهم بالإنحراف والغباء ، بل والجنون أحيانا بدلا من أن يقدروا محدودية وعيهم عن إستيعاب ما يفعله هؤلاء أصحاب النظرة الأبعد والأعمق عن نظرتهم التقليدية للأمور التي يغترون بمصداقيتها على كشف العواقب القريبة للأمور والتي تحول بينهم وبين كشف العواقب الوخيمة في المدى البعيد ، وبدلا من أن يقدروا تواضع قوتهم المتخاذلة أمام كل طموح غير تقليدي بالنسبة لما يفعله هؤلاء أصحاب القوة المتحدية المجاهدة .

* * *

الآثار المدمرة لضغط التقاليد على الإنسان

إن التوترات التي نعاني منها بسبب القيود المصطنعة التي أثقلت بها كاهلنا العادات والتقاليد هي إرهاص دائم بالأنفجار ، إنفجار الإنسان المتنازل دائما ، المتخاذل دائما .

الإنسان القلق المرعوب أمام أي محاولة لتغيير الخطأ قد تؤدي إلى أي صدام مع المجهول لا تحمد عواقبه .

ولن يؤدي الأرتضاء الدائم للأخطاء الظالمة من الغير إلا إلى إصابة الناس بالمزيد من الإحباطات والإنكسارات ، وهكذا يصير نسيج الترابط الواهن الذي يجمع بين الشخص والأخر الذي يرغم نفسه على تحمله هو أقرب ما يكون إلى المشنقة .

وحقيقة الحياة نفسها تختزل إلى اللهاث المرير وراء معالجة الشروخ التي تتداعي دائمًا حتى تصير صدوعًا لا تصيب الحياة فقط وإنما تصيب النفس ذاتها وتضعها على حافة الإنهيار بشكل مستمر .

وهكذا يظل هؤلاء يعانون من التوتر الدائم الذي يعرضهم للأنفجار في أية لحظة .

إن الأسلام لا يعرف كل هذا الهراء والإنكسار والعبث والضياع الذي تمليه النفوس الضعيفة المتخاذلة تحت تبرير الخضوع للأعراف والتقاليد السائدة .

إن الإسلام لا يعرف إلا الإستقامة .

الإستقامة في إنتهاج تعاليم الله وعدم العدول عنها إستناداً إلى أي مبرر .

الإستقامة في الوعي بأحداث الحياة واستخلاص العبرة منها .

الإستقامة في السير على طريق الحقيقة وعدم التهاون في إحقاق الحق وإبطال الباطل .

الإستقامة في الإحتفاظ بعزة النفس وكبريائها والحفاظ عليها من الشروخ والتصدع ومن ثَمَّ من الإنهيار .

والإستقامة أيضًا في الرفق واللين والمرونة في الظروف والمواقف التي تقتضي ذلك .

إن إحقاق الحق وإصحاح الصحيح مهما نتج عنه من خسائر مبدئية فإنه لا يمكن مقارنتها بالخسائر التي تنتج عن التضحية بالحق والتهاون مع الباطل بسبب الخوف أو حفاظًا على علاقة ما أو حفاظًا على عدم إصابة أحد بمكروه .

ونحن حين ندعوا إلى هذه الإستقامة لا ندعو إلى أمر تحسيني يقبل المناقشة والجدل أو الاعتذار عنه من أجل الحفاظ على أمور أكثر ضرورة وإنما ندعوا إلى أمر يستحيل إفتقاده لدى المسلم الحقيقي .

وإستقامة المسلم في سلوكه أمر يجسد حقيقة إيمانه وقدرته على الإستقلال والحرية والتمرد على ضغوط المفاهيم الجاهلية السائدة التي يدعمها طاغوت القهر الإجتماعي . فالمسألة غير قابلة للمساومة فإما أن

تكون مسلمًا حقيقيًا فتنتهج طريق الإستقامة في وعيك وسلوكك وتتمرد على كل هذه المفاهيم وتحافظ على إستقلال ذاتك وسلامتها من الخوف والتخاذل ، ومن ثم من التمزق والشروخ والتصدعات وإما أن تكون واحداً من أفراد قطيع ذلك المجتمع الجاهلي تظل فيه تتغاضى عن تمزقات نفسك حتى تصير معداً للذبح والإلتهام في أي لحظة .

ونحن لا نعنى بذلك عدم المرونة مع الأحداث ولكن على الإنسان أن يعى أن المرونة في هذه الأمور يسمح بها فقط في دائرة الأمور المؤقتة وعند ذلك فقط تحسب القواعد الشرعية في المصلحة في الترجيح بين أقل الضررين . الضرر الناتج عن التهاون في الحق ، والضرر الناتج عن التمسك به بحزم دون أن يعني ذلك ـ كما يفعل الكثيرون ـ التهاون عن حقوق تبدى بسيطة الأن بالنسبة للأضرار التي ستنتج عن عدم التهاون عنها بينما يترسب عن ذلك على المدى البعيد إهدار لحقوق أخرى أكبر منها أو أن يؤدي ذلك التنازل المستمر في الصراع القائم بين الحق والباطل إلى أن يّطمس الحق تمامًا ويّنصر عليه الباطل بشكل نهائي أو أن تضيع الحقوق وتنتهب بلا رجعة .أو أن تستسلم النفوس لمصيرها في الإنكسار والتصدع بلا أمل في إصلاح ما قد فرطت فيه منذ البداية .

وتظل هذه النفوس تحيا في ذلك العذاب الراكد خلف جدار الخوف من الصدام مع المجهول وهكذا تظل عرضة للإنفجار في أية لحظة .

* * *

موقف الإنسان الرباني من الرأي العام

لكل ما سبق فلا تضعفن أمام ما يسمى بالرأي العام .

إن الرأي العام في مجتمع فاسد هو تحصيل حاصل للفساد العام وموقف الإسلام من هذه القضية شديد الوضوح والحسم .

﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ .

﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

﴿ ولو أتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ .

﴿ وإن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ .

فلا يوجد شئ في الإسلام يسمى الرأي العام ولا يوجد شئ في الإسلام يعني الرضوخ للخطأ حتى ولو إجتمع عليه أهل الأرض جميعًا.

إن مجتمعًا تحكمه السطحية والنفعية لا تتوقع من أفراده أن يصدروا أراءهم إلا عن جهل وسطحية أو عن حقد ونقمة أو عن نفعية ولا مبالاة .

إما عن جهل وسطحية حيث ليس هناك دافع في تلك الظروف الطاحنة يدفعهم إلى السعي إلى معرفة الحقيقة أو التعمق في فهم الأمور .

وإما عن حقد ونقمة يدفعها إحساس البعض بالضعف والتخاذل بالنسبة لنفس الأمور التي يقوم بها الآخرون . أو عن نفعية يبتغيها البعض من وراء إصدارهم لأراءهم هذه سواء كان ذلك عن طريق مباشر أو غير مباشر .

أو على أحسن الفروض فإن الكثير من الناس في هذا المجتمع يصدرون أراءهم على سبيل (مشي حالك ـ بلاش دوشة ـ وأنا مالي ـ أهو فض مجالس ـ أهو الواحد بيمسك العصاية من النص : أي من باب إرضاء جميع الأطراف)

وهؤلاء لا يدرون مدى جناية ما يفعلون .

إن تمييع القضايا والخلط بين الصحيح والخطأ لن يمضي بأي مجتمع إلى أي خطوة إلى الأمام بل قد يعود به ألف خطوة إلى الوراء .

أما إلباس الحق بالباطل وإقرار الظلم وإعلاء كلمته وإهدار الحقوق وطمس معالمها وموالاة الظالمين ومجافاة المظلومين . كل ذلك يدخل في دائرة جريمة قول الزور وما أدراك ما الذي تعنيه جريمة قول الزور في الإسلام ؟!

يقول الحق جل شأنه :

﴿ أحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور (٣٠) حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق (٣١) ﴾ الحج .

وعندما ذكر الرسول ﷺ أكبر الكبائر ظل يردد بانفعال شديد « ألا وقول الزور ألا وقول الزور » حتى قال الصحابة ليته سكت .

إن إحقاق الحق وإبطال الباطل هو المهمة الأساسية التي يناط بها الإنسان الرباني في دائرة العلاقات الإجتماعية وهو المعيار الأساسي

للتفرقة بين مجتمع يرقى إلى المُثل الإسلامية ومجتمع يرتع فيه الفساد والضلال وتتنزل عليه لعنات الله .

ولذلك فالأسلام يحذرنا بقوة من الإرتكان إلى الظالمين والميل إليهم واتباع موقف أعوانهم من المنافقين الذين يعينونهم على ظلمهم بتمييع القضايا والباس الحق بالباطل .

يقول جل شأنه : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ .

ويقول الرسول ﷺ : « من مشى مع ظالم فكأنه سعى إلى النار » .

ويقول أيضًا ﷺ : « والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم » [أبو داود والترمذي] .

إن الباطل لا يصير حقًا مهما أجتمع عليه الناس ومهما طال به الزمن . وما بني على باطل يظل باطلاً مهما كان إرتفاع هذا البناء .

ولا يكتسب الظلم أي مشروعية في الإسلام حتى لو ارتضاه الناس جميعًا بل حتى لو إرتضاه المظلوم نفسه .

ولذلك فإن ذلك الرأي العام الذي تقام له الدنيا مهابة ليس له في الإسلام من قيمة ـ إذا لم يتفق مع شرع الله ـ أكثر من القيمة الجمعية للصفر الحسابي .

هل بعد ذلك من الممكن أن تهتز نفسك أمام ما يسمى بالرأي العام ؟

* * *

الحرام الأصغر والحرام الأكبر

إذا ساد الجهل بين الناس إختلط الأمر عليهم بين الحلال والحرام بوجه عام ويكون من الطبيعي أن يفقدوا القدرة على التفرقة بين الحرام الأصغر والحرام الأكبر بشكل أولى .

وباختلاط مثل هذه الأمور يكون المجال فسيحٌ للأفاقين للعب على وتر الحلال و الحرام لتحقيق مصالحهم وفرض نفوذهم وكسر شوكة الآخرين وفرض سيطرتهم عليهم .

فيصير الحلال ما يحللونه هم ويصير الحرام ما يحرمونه هم ويضخمون الصغير ويصغرون الكبير (يفيِّلون النملة وينمِّلون الفيل) وأعجب العجائب في هذه الأمور هو أنهم لا يحتاجون في كل ذلك إلى نصير وإنما الذي يكون في أشد الحاجة إلى نصير هو من يريد أن يضع الأمور في نصابها فيحلل الحلال ويحرم الحرام ويضع كل حرام في الدرجة التي يستحقها من التحريم والعقاب .

ولنا أن نتسأل لماذا يستطيع هؤلاء الأفاقون التلاعب بمثل هذه الأمور جاعلين من أنفسهم أربابًا من دون الله ومؤيدين عادة من أغلب الناس ؟

الإجابة إنها لعبة العرف والتقاليد فنحن في الحقيقة (خصوصًا في مجتمع مثل مجتمعنا المصري) نستمد معاييرنا في الحكم على الأشياء من حيث الحلال والحرام من العرف والتقاليد وليس من الدين .

وإذا تعجب البعض مما أقول أو إستنكره فإن سبب ذلك يعود إلى الجهل بالدين الذي تفاقم أمره وبلغ مداه وساد بين الناس حتى لم يعودوا

فقط يخلطون بين الحلال والحرام ولا يميزون بين الحرام الأصغر والحرام الأكبر وإنما إلى الحد الذي لا يدركون معه أنهم يحرمون ويحللون الأشياء تبعًا للعرف والتقاليد وليس تبعًا للدين وإذا صرخ أحد في وجوههم انتبهوا ليس هذا الذي تحكمون به على الأشياء بالحل والحرمة دينًا وإنما عرفًا وتقاليداً لم يستطيعوا تصديقه بل وشكوا في أمره وأنى لهم أن يصدقوا ذلك وحصيلة ما استقوه من معلومات صحيحة عن الدين هو أبسط من أن يذكر وقد إختلط بجهل الخطباء وتخاريف العوام ومخاوف وأوهام وعقد الأباء والأمهات وأضاليل السياسيين والعلماء المحتالين .

حتى وقر في نفوسهم أن الحلال هو ما يقره العرف والتقاليد والمفاهيم السائدة بين الناس أنه حلال . والحرام هو ما يقره العرف والتقاليد والمفاهيم السائدة بين الناس أنه حرام . وعلامَ البحث وراء ذلك إذا كان البحث مرهقًا للنفس وضغط الظروف لا يحتمل التعمق في الأمور . وأي جدوى تأتي من وراء هذا التعمق في مجتمع تحكمه المفاهيم النفعية ؟!.

ويكاد يستوي في مثل هذه الأمور الشخص العادي مع الشخص الجامعي لأن الأمر يتعلق بمدى إهتمام الشخص في حياته بإدراك ما يجب عليه تعلمه من أمور الدين وليس بما حصل عليه من شهادات وعلوم عامة .

أي أن الأمر يكون هكذا :

الحلال هو ما يجعله العرف والتقاليد حلالاً .

والحرام هو ما يجعله العرف والتقاليد حرامًا .

والحرام الأصغر هو ما يجعله العرف والتقاليد حراماً أصغر .

والحرام الأكبر هو ما يجعله العرف والتقاليد حرامًا أكبر .

ويأتي الأفاقون والمحتالون ويستغلون مثل هذه الأوضاع لمصالحهم الخاصة ولكسر شوكة الدعاة والمصلحين وإتهامهم في دينهم وعقولهم مؤيدين في ذلك بقطعان من البشر الجهلاء الذين يساقون كالبعير إلى حيث يريد الدهماء .

وأود أن أركز الآن على موضوع الحرام الأصغر والحرام الأكبر فأقول : إن المجتمع قد ينهض لمحاربة حرام أصغر بينما يغض الطرف عن إستفحاش حرام أكبر ويكون السبب الرئيسي في ذلك هو أن الأعراف والتقاليد تعتبر هذا الحرام الأصغر حرامًا أكبر وتعتبر هذا الحرام الأكبر أمراً هينًا لا يستدعي الوقوف عنده كثيراً .

خذ مثلاً هذا المثال الشائع جداً بيننا : فتى من الفتيان لا يصلي ؟ فإنه من النادر جداً في مجتمعنا أن يثير ذلك غضب أسرته عليه ولكن هذا الفتى ذاته تنقلب الدنيا عليه (في أغلب الأسر) إذا صار يدخن !؟

سبحان الله . صحيح أن التدخين أمر مستهجن دينيًا لكن هل من المكن مقارنة ذلك بإثم ترك الصلاة الذي هو أكبر إثم في الوجود بعد الشرك بالله .

ولكن هذا لا يهم مادام موقف المجتمع بالنسبة لفتى من الفتيان يعتبر تركه للصلاة هو الإثم الأصغر وتدخينه هو الأثم الأكبر .

وكذلك فإن المجتمع لا يعبأ بأن تذهب إمرأة لزيارة الأضرحة وتمارس فيها أمورا ما أنزل الله بها من سلطان وتتناقض مع العقيدة الأسلامية تناقضًا تامًا أو تذهب إلى أحد العرافين وتأخذ كل ما يقوله مأخذ الجد وفي ذلك يقول الرسول ﷺ فيما معناه : « من ذهب إلى عراف أو كاهن فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد » أما إذا أهملت هذه المرأة إهمالاً ملحوظًا في شأن من شئون الطعام فإنها تثير بذلك نقمة الجميع عليها .

ومن الطبيعي أنني لست من المنكرين لمدى تأثير الشئون المنزلية على إشاعة السكينة وتحقيق الإستقرار في الأسر ولكن ماذا من الممكن أن يكون إثم ذلك بالنسبة لوقوع المرأة في تلك الأعمال الجاهلية التي تعد من الشرك .

وإذا قام شخص ما بفتنة عظيمة لإيقاع أحد الأشخاص في المصائب فإن المجتمع لا يقف كثيراً عند ذلك الأمر نظراً لشيوع حدوثه في تلك العصور الفاسدة حتى لم تعد هذه الأمور تقابل بذلك الإستهجان الشديد الذي كانت تقابل به في الماضي . أما لو غضب ذلك الشخص الذي تكاد له المكائد ورفض أن يلقي السلام على ذلك الشخص الذي كادله حتى يعترف بجرمه قوبل موقفه هذا بالإستياء العام لمخالفته الصريحة لحديث الرسول ﷺ : « لا يحق لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث .. حتى قوله وخيرهم من يبدأ بالسلام » .

ويبدو بهذا المنطق العجيب ـ الذي لا يستند على شئ سوى أنه قد صار عرفًا شائعا ـ أنه بالرغم من أن « الفتنة أشد من القتل » بنص

القرآن إلا أنها ليست أشد من ترك السلام عندما يحكم الناس ذلك التفكير الأخرق .

وإذا لم يطلق أحد الدعاة إلى الله لحيته قالوا : أنظروا . إنه يدّعي القيام بالدعوة إلى الله مع أنه حليق اللحية ويرتدي ثياب أفرنجية . أما لو كان بين هؤلاء أنفسهم من يترك الصلاة أو يرتكب الفواحش مثل الزنا وقول الزور فإنه غالبا ما لا يوجه إليه لوم .

ويروي في هذا الإتجاه أن أحد العراقيين سئل واحداً من كبار أئمة المسلمين عن حكم دم البراغيث هل هو طاهر أم نجس ؟ فقا له :

أتستحلون دم الإمام علي وتسألني عن دم البراغيث ! .

ما الذي أريد أن اقوله من ذلك ؟

أريد أن أقول للمسلم الواعي إنتبه إننا لسنا بعصمة من الخطأ فلا تعطِ الفرصة لمن تحكمهم تلك المفاهيم الإجتماعية الجاهلية أن يضيقوا الخناق عليك لخطأ فعلته ليصرفوا إنتباهك عن جرائم أخرى يفعلونها هم يهون امامها خطؤك حتى تظل أنت محاصراً بالضغط الخانق لتلك المفاهيم المشاعة التي يصعب عليك الفكاك منها فتظل مشغولاً بها عن مواجهة جرائمهم .

إن المجتمعات الجاهلية تعيش في متاهات من الإضلال وعلى من تناط به مهمة الإصلاح الإجتماعي أن يحرص جيداً على ألا تزل قدمه في شركٍ ينصبه له الأفاقون لكي يعطلوه عن مهمته .

حقيقة ما يسمى برأي الناس

هناك غول مرعب يسمى رأي الناس يحسب له الكثيرون ألف حساب ويضحون خوفًا من إغضابه .

ولكن هل هناك واقع حقيقي يسمى رأي الناس أم أن هذا الغول الاجتماعي هو مجرد واقع وهمي مزيف مثله في ذلك مثل الغول الأسطوري .

إذا أردنا أن نفهم ذلك فلابد أن نحلل واقع التجمعات الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع والتي ينسب إلى مجموعها في النهاية ما يسمى برأي الناس .

في الحقيقة فإن الناس تجتمع عادة سواء كان في المجتمعات الريفية أو الشعبية أو المدنية وهو ما يتخذ عادة شكل المصاطب .. المقاهي .. النوادي على الترتيب السابق ، في تجمعات شبه ثابتة يتراوح عددها ما بين خمسة وعشرة أشخاص .

وفي الحقيقة فإنه غالبًا ما يكون هناك حد أدنى من الاتفاق في المفاهيم والقيم بين أفراد هذا التجمع ومع ذلك غالبًا ما يختلفون على أي شئ من المواضيع المطروحة بينهم ـ وهذا أمر طبيعي يتعلق بالطبيعة البشرية نفسها ولكن مصيبة المصائب تأتي إذا ما اتفقوا على رأي ما في قضية معينة .

إن هذا يوهم الكثيرين ـ وهذا أمر قلما ينتبه الناس له ـ بأن ذلك الرأي الذي اتفقوا عليه يمثل رأي الناس لأن محدودية الوعي رسّبت في

نفوسهم أن تجمعهم يعني الناس أو في أفضل الأحوال فإن تجمعهم يمثل صورة مصغرة للتيارات المختلفة لآراء الناس وبذلك يكون اتفاقهم على رأي ما في تجمعهم هو ما يمثل حتمًا ما يتفق عليه الناس من رأي .

وفي الحقيقة فإن هذه التجمعات غالبًا ما تختلف فيما بينها حول ذلك الحد الأدنى من المفاهيم الذي يكاد أن يكون متفق عليه داخل كل مجموعة على حده وبذلك فهي عادة ما تمثل مجموعة من الأنماط الفكرية التي تمضي في خطوط شبه متوازية . أي أن الحد الأدنى من المفاهيم الذي يتفق عليه أفراد تجمع ما يكاد لا يتفق عليه أي تجمع آخر .

ومن الطبيعي أن يكون حديثنا مرتبطًا بخصوصية المجتمع الذي نعيش فيه في ظل هذه المرحلة التاريخية التي لا يكاد ينتظم أبناؤها أي سياج فكري في أي أمر من الأمور ويستثنى دائمًا من حديثنا التيار الديني الملتزم والذي سنشير إليه بعد قليل .

وعلى ذلك فكل تجمع لا يكون صورة مصغرة للتيارات المختلفة لأفكار الناس وإنما كل تجمع له خصوصيته الخاصة فإذا اتفق أفراده على أمر ما فإن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال تمثيلهم لرأي الناس بالرغم من أن أفراده غالبًا ما يوهمون بذلك ويزعمونه ولكن الحقيقة أن الرأي الذي يتفقون عليه في أمر ما غالبًا ما يذهب أفراد تجمع آخر إلى رأي يخالفه ويعتقدون هم الأخرون أن ذلك الرأي هو رأي الناس ، وقد يتفق أفراد تجمع ثالث على رأي يخالف رأي التجمعين السابقين في نفس الموضوع ويزعمون بدورهم أن ما اتفقوا عليه يمثل رأي الناس . وهكذا

فإنك ترى ما يسمى برأي الناس هو غالبًا مجرد وهم ناشيء عن ارتباط شخص ما بتجمع معين من البشر يجعله يعتقد إن إتفاقهم على شيء ما هو إلا تمثيل لرأي الناس في هذا الشيء .

وأغلب الأمور الاجتماعية التي تثير جدلاً حول مدى مخالفتها للعرف غالبًا ما تتخذ هذا الشكل وهذا ما يعني أن هناك من الأمور ما يؤدي إلى اتفاق شبه تام بين الناس عليها أي بين كل هذه التجمعات أو أغلبها وإن تكن مثل هذه الأمور محدودة للغاية .

أما لو نظرنا لهذا الأمر بالنسبة للتجمعات النسائية . فإن النساء غالبًا ما لا يتفقن على أمر ما من الأمور . والطبيعي أن مدخل المرأة في تناولها لأمر ما هو من باب الحس والشعور وليس من باب المنطق والعقل ولذلك فكل امرأة تعطي رأيها في أي أمر بحسب الجانب الذي تتأثر به أو يتم التأثير عليها من خلاله بل أن كل امرأة على حدى قد تصدر في الموضوع الواحد عدة آراء مختلفة بحسب الجانب الشعوري الذي تتأثر به في كل مرة تتناول فيها الموضوع .

وعلى هذا فإن ما يسمى برأي الناس هو غالبًا مجرد وهم لا يثير الرعب إلا في قلب المغفلين ، ولا يؤدي إلى إحجام النفس الإنسانية وعدولها عن أمر ترديده إلا عند المغفلين .

والخائبون فقط هم الذين يرتضون أن يعيشوا حياتهم في الجحيم خوفًا من مواجهة ذلك الوهم الكبير الذي يسمى (رأي الناس) .

بل أن الذي يحدث في الواقع أن رأي الناس هذا كثيراً ما يستغل ككارت إرهاب في يد الدهماء يستخدمونه عندما تقتضي المصلحة ذلك

كوسيلة للضغط على هؤلاء المغفلين لإرداعهم عما يكون قد أثير في نفوسهم من سخط على واقع مهين يقتضي التغيير يعانون منه ويستفيد منه هؤلاء الدهماء .

لنفرض أن رجلاً ما أراد أن يتزوج من فتاة أصغر منه في السن بفارق كبير ها هي الدنيا قد تنقلب عليه لاتخاذه هذا القرار ولو تهيأت نفس الفرصة لأحد هؤلاء الذين أقاموا الدنيا عليه لما تردد لحظة واحدة في اتخاذ نفس القرار الذي هاجمه بشدة من قبل .

لنفرض إن إحدى النساء أقامت الدنيا ولم تقعدها على ابنها الذي أراد أن يتزوج من أرملة أو مطلقة . دعها هي ذاتها تتعرض إحدى بناتها للطلاق أو للترمل ستقيم الدنيا ولا تقعدها على هؤلاء اللاتي يحرمن ما حلل الله ويقفن في وجه من يريد الزواج من مطلقة أو أرملة .

* * *

مَنْ يحكم على مَنْ ؟
والموقف من الحقاد

من يحكم على من ؟

هذا سؤال في غاية الأهمية .

هل يترك الأمر هكذا مفتوحًا على مصراعيه ـ كما يحدث في الواقع فعلاً ـ لأي شخص أن يحكم على أي شخص .

وهل من الممكن أن يمثل ذلك قلقًا لكبار النفوس ؟

إن هناك أصنافًا من البشر ليست إلا كتلاً من الحقد الأسود تمشي على قدمين لا يعملون إلا على التماس زلات الناس بل وهفواتهم وتضخيمها والغض من محاسنهم وتحقيرها .

إن النقمة تملأ قلوبهم على كل شئ ولذلك فهم يبادرون الناس باتهامهم بما تمتلئ به نفوسهم من أمراض .

وفي الحالة الحضارية المتسمة بسيادة الجهل التي نعاني منها الآن وجد أمثال هؤلاء الفرصة في تشويه أهل العلم أو الحط من أقدارهم .

فنجد سفيهًا جاهلاً لا يحسن من أمر الدين أو الدنيا شيئًا يتبارى في الحكم على علم العلماء والحط من دينهم ودنياهم .

إن أصعب الأشياء على النفس أن يجرى حكم جاهل على عالم .

أو يجرى حكم ضال على صالح .

فما بالك بحكم الجاهل الضال على العالم الصالح ! .

إن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ .

لا .. لا يستوون .

ولا يحق لأحد أن يحكم على علم العلماء إلا العلماء .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ ﴾ .

لا .. شتان بين المسلمين والمجرمين .

ولا يحق لأحد أن يحكم على الصالحين إلا الصالحون .

ليست القضية عبثًا وليست المسألة سفاهة وكبار النفوس يجب أن يمضوا في طريقهم غير عابئين بهذا العبث أو هذه السفاهة .

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا ﴾ .

لكن المسألة قد تتمادى في ظل ظروف مواتية لها إلى التشنيع أو الفتنة أو الإيقاع في المصائب .

وقد يتخذ الحاقدون لذلك العديد من الأساليب المختلفة .

إن لي الحقائق أو إلباسها بالباطل أو تمييعها تمامًا حتى لا تكاد تبين ودس السم في العسل أو النيل من الآخرين من خلال الثناء عليهم كل ذلك من الأسلحة الأولية بالنسبة للحقاد .

والمهم في الأمر أنه إذا تمادى إلى تلك الأمور المشار إليها وصار يمثل عائقًا كبيراً عن التقدم فإنه لا مفر من تحطيمه .

ولكن لابد أن يعي الإنسان أنه يحتاج لدرجة من الفطنة والكياسة لا تقل عن درجة القوة التي يحتاجها لمواجهة مثل هذه الأمور .

* * *

الدائرة الإسلامية

هل يعني ذلك أن الإنسان الرباني يتحلل من أي قيد اجتماعي ؟

لا .. وإنما هو فقط متحرر من كل القيود الاجتماعية التي لم ينزل سلطان بها من الله هو فقط مقيد بحدود القواعد الشرعية التي تختص بتحديد الحلال والحرام والصحيح والخطأ والعيب واللاعيب ولا ينتصح المسلم إلا بمن يعون هذه الحدود ويعملون بها من المسلمين .

أي أن المسألة مسألة دوائر دائرة عامة من القطيع الاجتماعي الذي يسير أينما مضى به سائقوه . وهؤلاء لا عبرة على الإطلاق بما يقولونه أو يذهبوا إليه من آراء .

ودائرة خاصة من الملتزمين يجب أن يعمل الإنسان الرباني لنصائحها وآرائها ومواقفها ألف حساب .

* * *

كيف تفكر المرأة
عندنا

مدخـل:

إنسانية المرأة

المرأة ليست طبقًا من اللحم الشهي تأكله فتشعر بالشبع والنشوة .

المرأة ليست طبقًا يشتهى ، تتفاوت الرغبة إليها بقدر جمالها كما تتفاوت الرغبة بحسب نوعه وجودته . .

المرأة مخلوق إنساني قبل أي شئ آخر وتعلق المرأة وانشغالها بكل ما هو إنساني أكبر من تعلق الرجل .

فما ينوء به كاهل الرجل من مسئوليات وهموم يجعل من الصعب عليه بإمكان أن ينشغل بالأمور الأنسانية بنفس القدر الذي من الممكن أن تنشغل به المرأة التي يتمحور إهتمامها على مثل هذه الأمور .

ولذلك يلاحظ عادةً تفوق المرأة على الرجل في المجالات الإجتماعية والعاطفية وإنتصارها الحاسم عليه في أي صراع يدور بينهما في تلك المجالات.

وكيان المرأة الحقيقي في تلك الروح التي تحتويها والتي تنعكس على كل حركة من حركاتها وكل سكنه من سكناتها وجمال المرأة الحقيقي هو فيما تحملة تلك الروح من جمال داخلي .

وقد يحبوها الله مع ذلك جمالاً خارجيًا فيكون بمثابة مرآة ساطعة الضوء تعكس بشدة الجمال الداخلي ببريق مبهر يصعب مقاومته .

وقد لا يمنحها الله إلا جمالاً متواضعًا ومن ثم لا يدرك أحد مدى جمالها الداخلي إلا بالإقتراب منها .

إن المرأة الجميلة الروح المتألقة الصورة هي حقًا قوة قاهرة .

ولكن هناك من يتعاملون مع المرأة على أنها طبق من اللحم الشهي وبذلك يفضلون إمرأة على إمرأة أخرى بحسب جمالها كما يفضلون طبقًا من اللحم عن طبق آخر بحسب نوع اللحم وجودته .

بل قد يستبدلون الذي أدنى بالذي هو خير من باب التغيير وطرح الملل وبتلك الوضاعة قد يتركون الجميلة ولو كانت حلالاً ويجرون وراء الخبائث من النساء .

ولا عجب فمادامت المسألة مسألة أطعمة شهية فقط فمهما كان الطعام شهي وجذاب فإن النفس إذا إعتادته فإنها تمله وتعفاه وتبحث عما هو أدنى منه .

ولذلك فإن المرأة الواعية الحكيمة هي التي ترتقي بنفسها عن أن تكون مجرد نوع من أنواع الطعام .

وهنا يتضح لدى من خبر بتجارب الحياة وعمل فيها فكره التطابق بين الحقيقة الدينية والحقيقة الواقعية.

إن ارتقاء النفس أمر ديني لا شك فيه . ولكن حتى من المنظور الدنيوي البحث فإن المرأة التي تبغي الإحتفاظ بقوتها والإستبقاء على جاذبيتها وإشعاع بريقها فلابد أن تكتنز بقدر إستطاعتها هذا الجمال الداخلي ولا تفرط في شئ منه لأنه المعين الذي تستطيع أن ترتكز حتى آخر لحظة من عمرها على القوة المستمدة منه .

والدنيويون من الرجال والوضعاء منهم لا يجتذبهم كثيراً هذا الجمال الداخلي ولكنهم قد تردعهم قوته ويتضائلون أمام عظمته ولذلك كثيراً ما يتجنبونه .

أما جمالها الخارجي فمهما بلغ الغاية في مداه فإنهم إذا نالوا منه واعتادوا ذلك هان عليهم ومالوا إلى غيره ينشدون فيه بغيتهم التي لا تقف عند نوع واحد من الجمال مهما بلغت مكانته .

ولذلك فالمرأة الحكيمة حتى من الناحية الدنيوية البحتة يجب أن تنأى بنفسها وتترفع عن التعامل مع هؤلاء الدنيويين الوضعاء .

ويوفر علينا الإسلام إلتماس كل هذه العبر من تجارب ندفع ثمنها الباهظ من أعمارنا وتثقلنا آلامها لسنوات طويلة ، هذا لو سرنا على هداه المستقيم وعملنا بأحكامه والتزمنا أوامره ونواهيه وتعاليمه .

فالإسلام هو الذي جعل قيمة المرأة في إيمانها بالله وما ينطوي عليه ذلك الإيمان من الرفعة والسمو والنقاء والطهارة والإعتزاز والترفع بالنفس عن كل وضيع من الأمور وبهذا الإيمان وما يقتضيه من إلتزام بأوامر الله وتعاليمة يهب الإسلام المرأة وجودها الحقيقي ويحفظه من أي عبث .

* * *

الاستسلام للأحزان يعني الاستسلام للدمار

في الحقيقة أن في كل نفس فينا جانب يميل إلى الحزن ! فالحزن جزء لا يتجزأ من كينونة الإنسان وهو أحد المنافذ التي يخترق بها الإنسان غيوم النفس إلى البصيرة . فوجود الحزن يرتبط إرتباطًا وثيقًا بتوازن الإنسان نفسه ووعيه واتساقه الداخلي .

لكن البعض قد يتمادى به الأمر في الاتكاء على الحزن إلى درجة مغالى فيها ويستمرأ ذلك وقد يكون في ذلك تدميره .

فالإختلال بالتوازن النفسي للإنسان بالاتكاء على الحزن يجعل منه منفذاً إلى الوهم لا إلى البصيرة . بل وكثيراً ما يصنع الحزن ذاته تلك الغيوم التي تحجب بصيرة الإنسان ، ويضع أمام تطلعات النفس عوائق وعواثر ومصاعب لا وجود لها بل ويكبل هذه التطلعات ذاتها بالعجز والإحباط .

والخلاصة فإن التمادي في الحزن والمبالغة فيه يصيب النفس في النهاية بالشلل والعجز عن التطلع إلى أي رغبة من الرغبات الحيوية في الحياة ويسقطها في مستنقع اليأس والفتور .

يقول تعالى :

﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [الزمر : ٥٣] .

﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ [الحجر : ٥٦] .

﴿ فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] .

فإذا كنت ممن ابتلاهم الدهر فيما مضى من أعمارهم بمكابدة الألام والارتحال في المحن فلا تنظرن إلى الوراء أبداً ولا تحتفظن في نفسك بشئ يتعلق به إلا العظات والعبر المستمدة منه .

إن من يحمل ذاكرة أثقل من نيران الأرض يوشك أن يتداعى جسده من الإعياء إذا لم تستند نفسه على ركائز القوة الإيمانية

والذي ينظر إلى الوراء في ماضيه المؤلم فكأنه يفتح على نفسه أبواب الجحيم ليعيش فيها .

فكيف نحرق أعمارنا بأنفسنا وقد فتحت لنا أبواب المستقبل .

وكيف نبدد طاقاتنا في الهموم ولا نستغلها في محاولة صنع ما نريد به أن نكون .

إن القدر لا يعادي أحداً بالذات . فهذه فكرة ساذجة جاهلية لابد أن نتخلص منها .. فكرة تتناقض تناقضاً بيناً مع المفهوم الإسلامي للعلاقة بين الإنسان والقدر .

وإذا كنا قد استطعنا بفضل الله علينا أن نتخلص من ذلك الماضي وننتصر عليه فلماذا نأسر أنفسنا في نار هزائمه ولا نطلقها في جنة انتصاراته .

إن الهزيمة لا تعني الإنكسار والاستسلام والانهيار وإنما ضرورة إدراك العوامل التي أدت إليها والتخلص منها .

والإنتصار لا يجب أن تلهينا نشوته عن إدراك العوامل التي أدت إليه والتمسك بها .

والعوامل الحاسمة التي تدور حولها الهزائم والإنتصارات في أي صراع هي الإيمان والأرادة والوعي ومن يفتقد هذه الأشياء الثلاثة فإنه يفتقد الركائز الثلاثة في أي صراع فلا ينتظرن إلا الهزيمة .

﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ [يونس ٨١ : ٨٢] .

ومن هزم بالفعل فعليه أن يستعيد هذه الركائز ليستند عليها ، وبدلا من أن يحيا في مرارة الماضي عليه أن ينطلق بها نحو الإنتصار .

إن علينا أن نستوعب سنن الله في الأرض ونسير على هديها ونلتجئ إلى الله وندعوه أن يوفقنا ويسدد خطانا . لأن قدر الله فوق كل شئ وإرادته هي النافذة و (الله لا يضيع أجر المحسنين) .

إن إختزان الأحزان لا يفترق كثيراً عن إختزان الدمار .

وللحزن في إمتلاك نفوس نساء المسلمين شأن عجيب .

أعرف زهوراً من النساء يتركن أعمارهن تتسربل في الهموم والأحزان اتقاء لانتقاد إجتماعي باطل أو إحرازاً لمجد إجتماعي مزعوم أو إستسلامًا للشعور بالإنكسار والقنوط واليأس .

والعقيدة الإسلامية تعلمنا خصوصًا فيما يتعلق بالإعتقاد بالقضاء والقدر وكذلك الإعتقاد باليوم الآخر أنه مهما طالت السنون القاتمة السواد فلابد أن فجراً ما سيأتي بإذن الله .

والتي تؤمن بهذه العقيدة لا يحق لها أن يتملكها الحزن لخطب أصابها أو لداهية ألمت بها .

التشاؤم شرك
والتفاؤل حقيقة إسلامية

يقول الرسول ﷺ : ﴿ الطيرة شرك ﴾ أى أن التشاؤم شرك بالله . ولقد تضافرت الأحاديث على أن التشاؤم من أى أمر من الأمور شرك بالله . وخطورة هذا الأمر أنه يشيع بين النساء بشكل عجيب (العين التى ترف والقطة السوداء والغراب الذى ينعق والمقص الذى يطقطق وأغرب هذه الأشياء على الإطلاق هو الإعتقاد بأن يوم الجمعة فيها ساعة نحس لأن ذلك يناقض ماجاء عن رسول الله ﷺ أنه فى يوم الجمعة ساعة يستجيب الله فيها الدعاء أى أنها ساعة فرج وليس نحس كما يتوهم الناس) .

ومن ناحية أخرى فإن التفاؤل حقيقة من الحقائق الإسلامية لأن « الله لايضيع أجر من أحسن عملا » وكذلك فإن مع العسر يسرا . إن الله ينصر من ينصره و « بشر الصابرين » لأن الجنة فى النهاية السعيدة التى جعلها الله للمؤمنين .

المرأة هي السجان الحقيقي للمرأة في مجتمعنا

لا حقيقي لدى المرأة عندنا إلا ما هو شائع .

وليس هناك معيار آخر يحتكم إليه لدى أغلب النساء عندنا في تقديرهن للأمور غير هذا المعيار .

فالمفاهيم الدينية عندهن هي المفاهيم الشائعة المتوارثة عن الإسلام وهي في أغلبها مفاهيم جاهلية تسودها الخرافات والأساطير والمعتقدات الشركية وتعكس في داخلها ما تنطوي عليه من أثار سلبية وليس هناك ما يسمى بالتفكير المنطقي العميق لدى النساء عندنا إنما هناك فقط ما هو شائع .

وعلى ذلك فالمنطقي لديهن فقط هو ما يتفق مع هذا الشائع .

وليس هناك علم ولا ثقافة .

فالعلم والثقافة هما ما ترثنه وتتلقفنه من مفاهيم من النساء الأخريات لا سيما العجائز أو الأكبر سنا التي ترتبط بهن حتى إذا أرادت أن تتلقى مفاهيم أخرى عن طريق العلم والثقافة فهي لن تتقبل منها إلا المفاهيم التي تتفق مع المفاهيم التي أخذتها من هؤلاء النساء فما يتفق مع هذه المفاهيم يصير علمًا وما لا يتفق يصير جهلاً أو عبثًا لا جدوى من وراءه .

وبمعيار الشيوع هذا فهن يفكرن في كل أمور الحياة تستوي في ذلك المرأة الجامعية والمرأة العادية .

وفي الحقيقة فإن العائق الأكبر في وجه تقدم المرأة في مجتمعنا هو المرأة ذاتها .

وهي ذاتها أيضًا السجان الحقيقي الذي يكبلها بمواريث عجيبة من الأغلال والقيود ما أنزل الله بها من سلطان .

ومن الطبيعي أن النساء اللاتي أقصدهن هنا هن النساء المحافظات اللاتي يشكلن أغلب مجتمعنا أما الفاجرات من النساء والمتحررات الملحدات منهن اللاتي لا يحكمهن شئ فإنهن يخرجن عن الدائرة التي يتوجه إليها كلامي أصلاً .

ولا عجب إذا قلنا أن المشكل الحقيقي لعقل هؤلاء النساء المحافظات والمرجع الأساسي لجل تصرفاتنا هو الخرافات والأساطير والعقد الجاهلية المترسبة في عقول النساء العجائز أو بوجه خاص سيدات المجتمع المحافظات اللاتي يطلق عليهن عندنا لفظ (القرشانات) .

ومن تجرع الغيظ من تقاليد المجتمع عندنا وعاداته الجاهلية يستطيع أن يستقرأ تلك المفاهيم الجاهلية التي تسيطر على هؤلاء النساء .

فهن لا يملن إلا إلى الثبات .. الثبات .. الثبات .. والاستقرار .. الاستقرار .. الاستقرار .

والوجل الشديد من أي محاولة لتغيير الأمر الواقع والرضا والتسليم بكل شئ وأي شئ .

كما يميل أغلبهن إلى الالتجاء إلى الخرافات يستمدن منها العون على تحمل قسوة الحياة التي تسببن هن أنفسهن في وجودها .

ومن هنا كانت غلبة المعتقدات والأعمال الشركية على الكثيرات منهن والتي تتمثل في الالتجاء إلى الأضرحة والمقامات يلتمسن منها العون والمساندة والبركة .

ومصيبة المصائب في التجاء بعضهن إلى أعمال السحر والشعوذة والمعارك المتبادلة بين هؤلاء في أذى بعضهن بتلك الأعمال أو التخلص منها (فكها) وما يلزم ذلك من الإستعانة بشياطين الإنس والجن وهي في الحقيقة لها وجودها في مجتمعنا وتدخل كلها في أعمال الكفر .

والغاية التي يبحث عنها هؤلاء هي الأمان . الأمان . الأمان .

والشائع الأن أن الأمان يتحدد في النوم فوق سرير من الثروة .

وحقيقة الحقائق في هذا الأمر أنه لا أمان إلا في الإيمان والرضا .

فالإيمان هو القوة والرضا هو القدرة على مواجهة شتى ظروف الحياة وتقلباتها ولكن أنّى لنا أن نجد من يفهم ذلك .

ولأن هؤلاء النساء يحملن ميراث القهر العبودي المترسخ في تقاليدنا فإنهن يفزعن من أي محاولة لتغيير كل ما هو قائم بالفعل مهما حمل من المجافاة والظلم ولذلك فإن المسئول الأساسي عن تكّيف المرأة عندنا وتقديمها للذبح على يد بعض المتسلطين التافهين من الرجال هو المرأة نفسها .

والتبرير المتوارث لدى هؤلاء لتلك الحالة السلبية أمام أي ظلم والتي يسببها ذلك الفزع المترسب لديهن من أي صدام مع المجهول أن ما يحدث هو إرادة الله أو هو كما يقال في التعبير الشائع لديهن النصيب .

فالنصيب يكاد يكون الكائن الوحيد المتمثل أمامهن الذي يملك الإرادة أما نحن البشر وخصوصاً النساء منا فعبارة عن كائنات لا إرادة لها تسوقها الأقدار حيث تشاء .

ومن هذا المنطق يكرسن الرضوخ والإنصياع لما يحدث في هذا العالم في كل شئ فتزج الفتيات في الزيجات اللامتكافئة باسم النصيب وتحيا المرأة في حالة من العبودية وتحيا عمرها في لهاث متواصل من أجل العمل على ترميم التصدعات المتفاقمة في البيوت التي تقام على حافة الإنهيار بشكل دائم باسم النصيب ويظل هذا اللهاث الممزق لنفس هؤلاء باسم النصيب .

ولن يرث أبناء التمزق إلا التمزق ولن يرث أبناء الإنكسار والرضوخ لكل واقع مرير إلا الإنكسار والرضوخ .

وكيف من الممكن أن ينجب هؤلاء أجيالاً يملؤها العزم والتحدي والصمود على مواجهة قوى الإستكبار العالمية والجبروت الأمريكي والصهيوني ؟! .

والحقيقة أن هؤلاء النساء لا يكتفين بما رسخته حياتهن الإستعبادية الممزقة في ذهن أبنائهن وإنما هن يقمن بشكل مباشر بتلقين أبنائهن وحشو نفوسهن الخوف والجبن والهلع من الصدام مع المجهول ، كل ذلك على أساس أن الرضى بالأمر الواقع هو النصيب وقضاء الله وقدره .

ما لكن أنتن والعالم . عليكن أن ترضين بما قسمه الله لكن وما تقذفه لكن الدنيا وما يتفضل به عليكن الظلمة والطغاه وأصحاب الشأن

هذا هو نصيبكن الذي قسمه الله لكن وهل يحق لأحد أن يعترض على قسمة الله له .

مفاهيم الجهل والإستعباد والتمزق هذه هي المسئولة عن حالة التشوه العقلي والنفسي التي يعاني منها الكثير من أبناء هذه الأمة . وكيف يستطيع جيل يحمل مثل هذه المفاهيم أن يواجه قوى الإستكبار العالمي التي لا تعتمد إلا على المنطق العقلي والقواعد العلمية في تقديرها للأمور .

هم امتلكوا المنطق العقلي والعلم ونحن استعضنا عن المنطق والعلم والوعي الديني بالجهل والانكسار والخرافة ولا تستطيع أن تعرف إلى متى يعتقد النساء عندنا أن الظلم هو نصيبهن من هذا العالم .

إلى متى يعتقدن أن الأقدار تعاديهن بالذات دون سائر البشر .

إلى متى لا يفهمن أنه كما أن ما وقع من أحداث هو نصيب وما سيقع منها هو نصيب وإن مقاومة كل أمر واقع ومحاولة تغييره هو نصيب أيضًا أما ذلك النصيب المطلق النهائي الذي يعتبرنه إرادة الله التي يجب التسليم بها فهي النتيجة النهائية من كل هذة الأمور .

وأقول ـ لمن يستطعن إستيعاب مثل هذا الكلام ـ أنه ما دام ليس هناك من يطلع على الغيب ليعلم ما الذي أراده الله لنا في المستقبل فليس هناك شئ يمكن إعتباره في علمنا نحن النصيب الحتمي والمطلق والنهائي فكل شئ قابل للتغيير في هذا العالم وتلك سنة الله في حقه .

حقيقي أنه قد يكون هناك أمور معينة أراد الله نفاذها في هذا العالم لكننا لا نستطيع أن ندرك هذه الإرادة لكي يمكننا التسليم بأمر ما دون آخر فلا نعمل على محاولة تغييره

وقد أردت من كل ما سبق أن أبين ما هي المفاهيم التي تحتل السلطة العليا في استيعاب ووعي المرأة ومن ثم في القرارات التي تتخذها في حياتها .

ولذلك فالفتاة أو المرأة عامة عندنا عندما تتخذ قرار ما مهما كانت خطورته في حياتها فإنها عادة تلتفت يمينًا ويسارًا تستقرئ آراء النساء حولها في هذا القرار ومن الصعوبة بمكان أن تجد واحدة منهن تستطيع أن تتحدى تلك التقاليد الباليةالتي تكبلها بها النساء الآخريات وخصوصًا العجائز منهن .

وهكذا توقف المرأة حياتها رهينة لتلك القيود .

* ما اختاره أبواك هو الصح أما أنت فصغيرة لا تعلمي من أمر الدنيا شيئًا .

* مهما فعل زوجك ومهما كان سلوكه معك ومع نفسه أو مع أولاده أو مع الآخرين فلا يجوز لك أن تتمردي على ذلك لأن هذا هو نصيبك وقضاء الله وقدره وهل يستطيع أحد أن يتحدى النصيب والقضاء والقدر .

* عيشي حياتك كما هي لا تتحدثي عن الحلال والحرام أو عن الصح والخطأ ما لنا وتلك الشئون .

* حياتك مطبخك وشئون بيتك ودينك في قلبك وعلمك في نصائح الأكبر منك فلماذا تشغلين نفسك بالبحث والقراءة .

* دينك في قلبك فما الداعي لتعلمه من مصدر آخر وعلمك فيما تتعلمينه من نصائح الأكبر منك فما الداعي لقراءة الكتب والإهتمام بذلك الشئ الذي يسمى الثقافة وحياتك هي مطبخك وشئون بيتك فلماذا تضيعين حياتك بالإنشغال بالقضايا العامة التي لا شأن لنا بها وكيف تجرئين على الحديث عن رغبتك في المشاركة فيها .

مات زوجك فلترتدي أثواب الحداد ولتحافظي على إقامة مراسم العزاء كل أسبوع وكل موسم وكل عيد ، سنة ، إثنين ، ثلاثة سنوات أو أكثر لا يهم المهم أن تكسبي رضى المجتمع وأن تثبتي له أصالتك بحفاظك على تلك التقاليد الدالة على صونك ذكرى زوجك .

* أجننت ؟ أتقبلين الزواج من آخر حتى ولو كنت في ريعان شبابك وأيًا كان تقوى المتقدم لك وتعهده بتقديم الرعاية اللازمة لصغارك فماذا سيقول المجتمع عنك عند ذلك .. إهتمت بشئون نفسها وأهملت صغارها ؟! أجننت ماذا تريدين أن تفعلي لابد أن تعكفي حياتك على تربية صغارك وليذبلن شبابك في أردية الحداد وتقدمين بذلك الدليل على أصالتك وعظم تضحيتك وليكن كل ذلك رصيداً لك عند أولادك تظلي تطالبينهم به طوال العمر . وتمنين به عليهم إذا أقتضى الأمر .

عقد وبدع وجهالات ما أنزل الله بها من سلطان .

يحرمن الحلال ويحللن الحرام كما تهوى نفوسهن .

ثم يظللن يصرخن من القيود التي كان لهن الفضل الأكبر في عقدها .ويبصر الجاهلون حالهن فينسبون كل تلك المصائب إلى الإسلام وهو منها براء .

يقول الشيخ الغزالي في كتابه (قضايا المرأة) : « إن من غرائب السلوك الإنساني أنه هو الذي يصنع لنفسه القيود المؤذية وهو الذي يخلق الخرافة ثم يقدسها !! »

نعم فالذنب الأكبر يقع على المرأة نفسها في تكبيلها لنفسها بتلك القيود .

حقيقي أن المرأة في مجتمعنا تعيش في سجن كبير ولكن المرأة نفسها هي السجان أيضًا . ومعظم القيود التي تكبل المرأة وتردعها عن التمرد على كل الأوضاع الظالمة التي تعاني منها .. معظم هذه القيود تضعها النساء حولها .. أو بمعنى أدق فإن السبب في هذه القيود هو رضوخ المرأة لطريقة التفكير التي تفكر بها النساء اللاتي حولها وخصوصًا العجائز منهن ، ولا حل للمرأة للخروج من أسر هذه الأغلال والقيود التي تحرق عمرها في المظالم إلا بأن تنزع من رأسها تلك المفاهيم الجاهلية التي يفكر بها هؤلاء النساء وتضعها تحت أقدامها وتجعل من الإسلام والإسلام فقط مصدرها الوحيد في تلقي الحلال والحرام والصح والخطأ .

إن الله حررنا بنعمة الإسلام من أسر مظالم العبودية فلماذا نختار بأنفسنا الرزوخ في عبودية الجهل والتقاليد والخرافات ؟!..

مفهوم النجاح

بين الانسان الربانى

والإنسان النفعى

مفهوم النجاح
بين الإنسان الرباني والإنسان النفعي

مما لا شك فيه أن النجاح غاية يسعى إليها الجميع في صراعهم الإنساني .

ولذلك فمفهوم النجاح مفهوم هام للغاية وله أثره الخطير على الواقع الإجتماعي .

إننا إذا كنا نسعى جاهدين إلى النجاح فلابد أن نتسائل أي نجاح هذا الذي نرتجيه ؟ .

إن الموقف الإسلامي يعني أن أي نجاح في الوجود لا يصطبغ بصبغة الله فهو شئ فارغ لا قيمة له .

﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغه ﴾ .

ولكن النفعيين الذين صاروا الآن يسيطرون على مفاهيم المجتمع قد رسخوا في الأذهان مفهوما للنجاح غاية في الإضلال والقسوة ولكنه أيضًا غاية في الإقناع لغير المتعمقين في الأمور .

لقد ربطوا بين مفهوم النجاح وبين تحقيق النتائج (وهي قاعدة محورية في الفكر البراجماتي النفعي) ثم حصروا هذه النتائج في النتائج والآثار المادية إن لم تكن النقدية فقط لا غير .

لقد حصر البراجماتيون الحقائق في دائرة المنافع والمصالح المادية وتحت ضغط الحاجة والحرمان من جهه وإبتعاث الرغبات والإغراء بتحقيقها من

جهه آخرى إستطاعوا أن يشحذوا طاقات الناس نحو شئ واحد هو العمل على تحقيق هذه المنافع والمصالح بأية طريقة كانت ومن هنا كانت كل هذه المفاهيم .

فعند أي جدال يقوم حول مدى لجاح شخص ما فإن السؤال الأساسي الذي يطرح هو ماذا حقق هذا الشخص من نتائج لكي يمكن وصفه بأنه شخص ناجح ؟ بل كثيراً ما يأتي السؤال المطروح بهذه الصيغة الأكثر حدة ، هي : ما الذي حققه هذا الشخص من النقود والثروة لكي نصفه بأنه شخص ناجح ؟

ومن نفس هذا المنطق البراجماتي المرتبط بالنتائج يستمدون معيارهم في الحكم على كل الصراعات في الحياة . فالشخص الوحيد الذي يمكن وصفه بالنجاح إنطلاقًا من هذا المفهوم هو فقط الشخص الذي يستطيع أن يكسب الصراع الذي يدخل فيه أو حتى الصراع الذي يفرض عليه بل كثيراً ما لا يعترفون بذلك المكسب إلا لو كان مكسبًا كاملاً فقط .

إن الإسلام هو مرجعنا الوحيد الذي نستمد منه معاييرنا في الحكم على الأشياء .

فالحقيقي ليس إلا ما يعتبره الإسلام إنه حقيقي .

والنافع ليس إلا ما يعتبره الإسلام انه نافع .

وبادئ ذي بدء فالإسلام لا يعطي أية أهمية أو إحترام للمصالح والمنافع المادية إلا في حدود القدر الذي يلبي الحاجات الأساسية الحقيقية للإنسان

(أي ما يسمي في عرفنا الإجتماعي بالستر) ويرى أن ما يزيد عن ذلك من حطام الدنيا هو أنزل قدراً عند الله من أن يتصارع الناس عليه أما إذا ضحى الإنسان بالقواعد الشرعية من أجل تحقيق هذه الأشياء فأنه يكون بذلك قد سقط في مصيدة الشيطان التي قد تؤدي به إلى الكفر في نهاية المطاف .

وفي الحقيقة فإن لكل إنسان طريقته الخاصة في تحديد الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه مادام لا يصطدم ذلك مع القواعد الشرعية في الإسلام لكن للمجتمع عادةً ما يحدد للأشخاص أهدافًا معينة يفرض عليهم العمل على تحقيقها ويصفهم بالشذوذ أو الفشل إذا اتجهوا إلى أهداف غيرها ولذلك يجب أن يتحرر الإنسان بالكامل عند تحديد أهدافه من المفاهيم الشائعة للمجتمع التي تعمل على صب البشر في قوالب معينة معدة سلفًا . هذا من حيث تحديد الهدف . أما من حيث النجاح في العمل على تحقيقها فالإسلام له معياره الخاص في ذلك والذي يختلف عن المعيار البراجماتي الذي لا يتعلق إلا بالنتيجة .

إننا إذا أردنا أن نحدد معياراً لمفهوم الإسلام فلنستبصر بما وضعه الإسلام لمفهوم العمل الصالح .

إن العمل الصالح هو العمل الذي يبتغي غاية صالحة يرضى عنها الله وهو يتعلق بالإرادة والفعل أما النتيجة فإنها أمر لا يتعلق بإرادة الإنسان فقط وصلاح عمله وإنما تتعلق أساسًا بالمشيئة الإلهية لوجودها .

هب أن رجلاً نوى أن يحج وإجتمعت إرادته على ذلك وسعى إليه بالمال والزاد والراحلة وفي منتصف الطريق مثلاً حال بينه وبين غايته حائل أرادته المشيئة الإلهية . أفلا يكون عمله هذا عملاً صالحًا يثاب عليه ؟

بلى إن الإسلام يقرر في موقف كهذا أن ثواب الحج يحسب لذلك الرجل .

﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ [الإسراء : الآية ١٩] .

وفي الحديث الشريف : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة » .

والحقيقة الواقعية للنجاح في الصراع الإنساني لابد وأن تتعلق بمدى صحة التصرف الذي يسلكه الشخص الداخل في هذا الصراع ومدى حرصه على بذل ما في وسعه لكي يصل إلى هدفه مع العلم بأن معايير الحكم على صحة التصرفات يجب أن تتحرر من المفاهيم التقليدية الشائعة لها ويجب أن تضع في الإعتبار الظروف المحيطة بكل صراع بدقة فإذا اتخذ الشخص الشروط الواجبة للنجاح في الصراع الداخل فيه فهو شخص ناجح بغض النظر عن النتائج التي تتحقق نتيجة سلوكه في هذا الصراع .

بل ويقاس مدى نجاحه بمدى ما حققه في سلوكه من تصرف مبدع ومجهود كبير .

والقول بغير ذلك وربط كل شئ بالنتيجة الحاصلة هو تغميض عن حقيقة ما يحدث في الواقع من تداخل عوامل خارجية عن الإرادة ـ وعن تقديراتها ـ تقطع العلاقة ما بين السلوك المتخذ والنتيجة المرجوة منه .

فليس حقيقيًا ما يذهب إليه بعض الأجلاف من الماديين الجهلاء من أن النتيجة الحسنة تعبر عن السلوك السليم والنتيجة السيئة تعبر عن السلوك الخاطئ هذا على فرض إتفاقنا على المعيار الذي يحكم به على هذه النتيجة التي من الممكن أن نتابعها كل يوم بوعي جاد لأن التجارب الواقعية تخبرنا أنه قد يحدث في بعض الأمور أن تنقطع العلاقة ما بين التصرف السليم والنتيجة الحسنة وأن هناك بعض النتائج الحسنة قد تنتج نتيجة تدخل عوامل خارجية عن الإرادة وتقديراتها عن تصرفات خاطئة وهناك بعض النتائج السيئة قد تنتج نتيجة تدخل عوامل خارجية عن الإرادة وتقديراتها عن تصرفات سليمة .

هنا يتضح التطابق بين الحقيقة الدينية والحقيقة الواقعية .

فالحقيقة الدينية تقرر أن الإرادة الإنسانية على الرغم من أنها حرة من حيث اختيارها لما تفعل ولكنها مقيدة بالإرادة الإلهية من حيث تحقيق النتائج .

والحقيقة الواقعية تقرر أنه ليس كل ما يتمناه المرء يبلغه حتى ولو سعى إلى هذا الذي يتمناه بكل الخطوات المؤدية إليه لأنه قد تتدخل عوامل آخرى ليس لها علاقة بإرادة الإنسان وتقديراتها تحول بين سعيه وبين تحقيق الغاية المرجوة منه . هذه العوامل يقف أمامها الماديون

حائرين أما المؤمنون فيعون جيداً أنها بعض مظاهر المشيئة الإلهية ولذلك فهم يطلبون العون من الله دائمًا على أن يوفقهم في تحقيق أهدافهم .

وانطلاقًا من هذه الحقيقة الدينية الواقعية فإن المنطق الإيماني الواقعي في نفس الوقت يستوجب علينا أن نطبق نفس مفهوم العمل الصالح في الإسلام على مفهوم النجاح في الإسلام أيضًا .

وبذلك يرتبط مفهوم النجاح في الإسلام بما يتعلق بالإرادة والفعل وليس بتحقيق النتائج وبذلك يكون الشخص الناجح هو الشخص الذي يتصرف التصرف السليم في صراعه مع الحياة للوصول إلى هدفه (بالمعاييرالناضجة المتحررة من المفاهيم التقليدية في الحكم على التصرفات والتي تضع في إعتبارها الظروف المحيطة بكل صراع بدقة) والذي يحرص على بذل ما في وسعه لكي يصل إلى هذا الهدف . بغض النظر عن النتائج التي تتحقق عن سلوكه هذا .

بل ويقاس مدى نجاحه بمدى ما حققه في سلوكه هذا من تصرف مبدع ومجهود كبير بغض النظر عن النتائج أيضًا .

* * *

قيم المواجهة

الواقعية الإصلاحية
فى مواجهة
الواقعية الإستسلامية

الواقعية الإستسلامية والواقعية الإصلاحية

إن الإسلام يقشع الضباب والغيوم عن بصيرة الإنسان ويحرره من المخاوف والأوهام والعقد والمعتقدات الباطلة التي يكبله بها مجتمعه لكي يرى الحقائق كما هي وبلا خداع .

ولذلك فالمسلم الحقيقي هو المسلم الواقعي ولكن بأي مفهوم للواقعية يا ترى ؟ .

إنها الواقعية التي تتعامل مع الواقع الحقيقي الذي لا تتدخل فيه بعض الأباطيل لمجرد أن الناس قد إعتادوا إعتبارها جزءاً من الواقع .

إنها الواقعية الخالية من العقد الموهومة التي تؤدي إلى التخاذل الدائم وإعتبار ذلك واقعية .

إنها الواقعية الخالية من الخوف الدائم من الصراع مع الباطل ومن ثَمَّ إلى الإستسلام له وإعتباره منذ البدء صراعًا مع الأمر الواقع الذي يفرض نفسه على الجميع . بل إنها الواقعية التي لا تستسلم للباطل حتى ولو كان قد فرض نفسه وصار أمراً واقعًا بالفعل مادامت هناك إمكانات موجودة لتغييره .

إن الإسلام ينير بصيرة الإنسان حتى تخترق الضباب والغيوم وكل ما يحول بينه وبين حقائق الواقع .

يقول الشهيد سيد قطب : « والدين لا يوجهه الواقع أيا كان ليقره ويبحث له عن سند منه وعن حكم شرعي يعلقه عليه كاللافتة

المستعارة ! إنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه فيقر منه ما يقر ويلغى منه ما يلغى وينشئ واقعًا غيره إن كان لا يرتضيه ، وواقعه الذي ينشئه هو الواقع » (معالم في الطريق ، ص ١٠٦) .

ولكن مازال هناك الكثير من المغفلين والضعفاء لا يعقلون الواقعية إلا على أنها الإستسلام للأمر الواقع وكثيراً ما لا يكون هذا الأمر الواقع الذي يستسلمون له قد تم بالفعل لكنهم أرادوا أن يريحوا أنفسهم من عناء الصراع معه بمجرد ظهور بعض ملامح تفوقه عليهم في بعض الأمور .

بل وكثيراً ما يكون هذا الأمر الواقع الذي يستسلمون له قد زالت أهم ركائزه وصار معرضًا للأنهيار ومن ثم للزوال في أي وقت ولكنهم يظلون مستسلمين له على أنه الأمر الواقع الذي يفرض نفسه على الجميع .

إن الواقعية الحقيقية هي أن نعي أن الواقع الذي زالت أهم ركائزه وصار عرضة للأنهيار يكون من الجهل والغباء بل والجنون أيضًا الحديث عن الإستسلام له على أنه أمر واقع بل يكون الأمر الأكثر معقولية هو الإستسلام للواقع الجديد الذي تظهر ملامحه في العوامل التي أدت إلى زوال الواقع الراهن والعمل على التعجيل بذلك الواقع الجديد .

إن ذلك الواقع الجديد المرتقب يفرض نفسه على الواقع الراهن المتصدع بما يكمن فيه من إمكانات فعالة وحضور قوي ولذلك يصير هو ذاته أمراً واقعًا بالفعل يجب الإستسلام له .

فهناك فرق كبير بين الواقعية الإستسلامية والواقعية الإصلاحية .

فالواقعية الإستسلامية هي أن ترضى بالأمر الواقع كما هو وتشعر بالعجز أمامه وتستسلم لما يريده منك بل وتستسلم لتياره أينما دفعك ذلك التيار .

وهؤلاء الأستسلاميون الذين يبررون ضعفهم وتخاذلهم بالواقعية يسلمون أنفسهم للظروف إستسلامًا مخزيًا . فحتى لو كانت تلك الظروف قد دفعتهم لأن تنزلق أقدامهم في إحدى المنحدرات فإنك تجدهم يستسلمون تمامًا لذلك الإنزلاق حتى ولو توفرت لهم إمكانية جديدة لمقاومته أو للتوقف فيه عند نقطة ما يستطيعون منها الإنطلاق والعودة إلى ما كانوا عليه فيما قبل .

ولكن ما ارتضوه من إستسلام مخزٍ جعلهم لا يريدون بذل أي قدر من المحاولة وكأنهم يجدون راحتهم في الإنزلاق تمامًا إلى الهاوية التي ينحدرون إليها .

أما الواقعية الإصلاحية فهي الواقعية التي تتعامل مع الواقع كما هو بالفعل دون فرض تصور مسبق عليه .

إنها الواقعية التي تؤمن بالله وقدرته ومشيئته وأقداره التي تجعل كل شئ عرضة للتغيير بسنن الله في الأرض التي تجعل الأيام دولاً بين الناس .

وفي الحقيقة فإن كل واقع مهما بلغت سطوته فهو يحمل في داخله عوامل تغييره . والمؤمن القوي ذو البصيرة النافذة هو الذي يستطيع أن يدرك هذه العوامل ويدرك كيفية إستغلالها بالطريقة التي تجعل منها منطلقات للتغيير إلى الواقع الآخر الذي يرتبط بالمثل الإيمانية المنشودة .

إن الأمر يمر بالإنسان المؤمن على ثلاثة مراحل :

مرحلة الوعي القوي والبصيرة النافذة .

ثم التحدي والمحاولة .

ثم التحمل والصمود .

فالواقع الداهم الذي ينصح الإستسلاميون بالإنحناء لعاصفته يحمل في الغالب كما قلت عوامل تغييره ولكن استيعاب ذلك يحتاج إلى الوعي القوي بما يحيط به من ظروف وما يحمله من إمكانيات حقيقية والبصيرة النافذة التي تستطيع استكناه عوامل التغيير تلك والتفرقة بينها وبين أماني السراب والأوهام .

وعلى فرض أننا أمام واقع قوي يفرض نفسه لكنه واقع ظالم لعين ما أنزل الله به من سلطان فهل نقف أمامه مكتوفي الأيدي ونحن نبصر أعمارنا تتطاير كالدخان من حريق شروره .

إن هذا هو الجنون ذاته .

إن الحياة لو امتدت في أروقة اليأس والعدم والكآبة وصارت كالعيش في تابوت متحرك أفلا يكون الموت الناقل إلى رحمة الله خيراً منها ؟! .

وأي عقل هذا يدعيه الانهزاميون لكي يبرروا به استسلامهم المخزي لواقع مثل هذا .

إنه إذا لم يكن أمامك بديل سوى أن تعيش في الحياة بلا حياة فإن الموقف العاقل الوحيد هو أن تتحدى ذلك الواقع الذي يفرض عليك أن

تعيش هذه الحياة مهما كان ثمن هذا التحدي لأنه على أي حال سيكون أقل كثيراً مما تدفعه بالفعل باستسلامك له ، وهل هناك خسارة أكبر من أن يخسر الإنسان كل ما هو جوهري في حياته .

إن الذين يشترون آخرتهم بدنياهم يخسرون الدنيا ويكسبون الآخرة وما أربحها صفقة ، أما الذين يرضون الواقع الظالم لهم ثم يستمرؤونه ويدافعون عنه ويناصرونه فإنهم لا يخسرون دنياهم فقط وإنما آخرتهم أيضًا .

ثم تأتي مرحلة التحدي والمحاولة وهي تعني أن الأمر ليس لهواً وأنك تتحدى تياراً جارفًا ولذلك فعليك أن تأخذ بشروط ذلك التحدي وأن تقبل نتائجه وما يفرضه عليك من تضحيات . وعليك أن تستغل عوامل التغيير هذه إلى أقصى درجة ممكنة . وأن تتبصر دائمًا ما هي المستجدات التي تحدث لكي تستغلها أفضل إستغلال فلا أحد يدري ماذا من الممكن أن يحمل القدر من مستحدثات بشكل دائم بل وعليك أن تحاول أن تصطنع أنت بنفسك مستحدثات للتغيير فمحاولتك هذه وما ينتج عنها هي في ذاتها قدر من أقدار الله .

وليس شرطًا أن تنجح مائة في المائة . إن أي نسبة من النجاح في هذه المواقف العسيرة أمر عظيم وحتى ولم تأتِ بأية نسبة من النجاح .

فالمحاولة نفسها نجاح .

وهي أمر واجب في ذاته .

ووجوب المحاولة يكون حاسمًا عندما لا يكون للإنسان [illegible] ما غير الضياع .

فإما أن يحاول وإما أن يقبل واقعا مدمراً قاتلاً

وعندما لا يكون للإنسان بديل سوى الموت ذاته سواء كان ماديًا أو معنويًا فإن وجوب المقاومة والمحاولة يكون هو الأمر المنطقي الوحيد في هذا الوجود .

ثم تأتي مرحلة التحمل والصمود والصبر والمثابرة .

ولا بد من إعداد الزاد للدخول في هذة المرحلة وهو أمر يتعلق بمدى ما تحمله النفس المؤمنة من زهد وصبر وإصرار على الهدف ومثابرة على تحمل المكاره والمشاق وعماد الأمر كله يتحدد في مدى إصرارها على إحقاق الحقوق التي أحقها الله في هذا الوجود والرضا بما قسمه الله لها في هذا الصراع .

إن مطاولة الصراع تغري النفس بالوهن وتجلي النفوس الكبار .

وبين هذا وذاك لحظة ضعف وحيدة تسقط أعلي النفوس من أعلى القمم إلى أردى مهاوي الإنهيار .

وأصعب لحظة في الوجود هي تلك اللحظة .

نعم إن أصعب لحظة في الوجود هي تلك اللحظة التي تقع بين قمة الصمود وبداية الإنهيار .

لكن الربانيين الذين يتعلقون بالله ويعتصمون به لا تسقطهم تلك اللحظة ، الذين يتوكلون عليه ويوقنون بما أعدلهم من ثواب الآخرة لا تسقطهم تلك اللحظة .

الذين يصرون على الحياة من أجل إعلاء كلمة الله وتحقيق عدله ويرتضون في سبيل ذلك ما قسمه الله لهم في هذه الدنيا لا تسقطهم تلك اللحظة .

ولكن أفق أيها الإنسان .

من قال لك إن الله يتركك وحدك في مثل هذه المواقف .

من قال لك إن الحسابات الأرضية فقط هي التي تحكم مثل هذه الأمور .

من قال لك إن الإرادة الإلهية لن تتدخل وإن فرج الله لن يأتي بما ليس في الحسبان .

إن عليك فقط أن تعد للأمر عدته وأن تجعل تقوى الله هي زادك في هذا الوجود أما ما سيكون وما سيصير فهو أمر بيد الله وحده .

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه . إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شئ قدراً ﴾ .

* * *

العقل
والجنون
والشجاعة
والتهور

العقل والجنون والشجاعة والتهور

بادئ ذي بدء فإنه يجب التمييز بين الذكاء والعقل وذلك لإعتقاد الكثير من الناس أنهما يمثلان شيئًا واحداً . وهوما يؤدي إلى الخلط في كثير من الأمور والوقوع في سلسلة من الأحكام الخاطئة في الحكم على الأشخاص وتصرفاتهم كالحكم على شخص ما بالغباء لانه تصرف تصرفًا ما يتصف بالتهور أو عدم التعقل .

أو الحكم على شخص ما بالذكاء لأنه تصرف تصرفًا يتصف بالعقل .

وهكذا فالشخص الذكي لدى هؤلاء هو الشخص العاقل والشخص الغبي هو الشخص قليل العقل .

وفي الحقيقة فإن الأمرين مختلفان تمامًا .

فالذكاء أمر يتعلق بالقدرات الإبداعية لدى الشخص وهو أمر وراثي لا إرادة فيه (راجع كتاب علم النفس العام للدكتور يوسف كرم) وإن يكن تنشيطه بالإجتهاد الدائم أمراً بالغ الأهمية .

أما العقل فهو أمر يتعلق بقدرة الشخص على التحكم والتوجه في تصرفاته ولا يستدعي هذا إمتلاكه لقدر غير محدود من الذكاء وإنما يكفي لإمتلاكه توافر فيه الذكاء العادي . مع ملاحظة أنه إذا توفر للشخص إمتلاكه للذكاء الكبير المتفوق والعقل القوي المتحكم لكان قوة عظيمة ينبغي أن يعمل لها ألف حساب .

وينبني على ما سبق أنه إذا كان الشخص ذكيًا فإن ذلك لا يستدعي أن يكون عاقلاً أيضًا ، فقد يكون عبقريًا ومع ذلك فإنه لا يبالي

بتوجيه تصرفاته أو التحكم في سلوكه أو أنه قد يتخذ في حياته مساراً منحرفًا أو شاذاً لا يرتضيه أحد من العقلاء ومع ذلك يظل كما هو شخصًا عبقريًا مع أنه في الوقت نفسه شخص قليل العقل .

وقد يكون الشخص عاقلاً (أي متزنًا ومتحكمًا في تصرفاته) ولكنه مع ذلك متوسط الذكاء لا يستطيع التعمق في الكثير من الأمور التي تتطلب قدرات خاصة من الذكاء لا تتوفر له كما أنه لا يستطيع إبتداع أمورٍ جديدة لها جدوى يعتد بها .

ولكن الأمر الأكثر خطورة في حياتنا هو المعيار الذي ينطلق منه حكمنا على تصرف ما من التصرفات أنه تصرف عاقل . فالتصور الشائع للتصرف العاقل هو أنه الذي يرتبط دائمًا بالهدوء وعدم الإنفعال وعدم المغامرة والتعرض للمخاطر .

أما في عرف التقاليد فإن التصرف العاقل هو التصرف المعتاد الذي ينتظره المجتمع من شخص ما في موقف ما من المواقف ، فإذا خالف هذا الشخص ذلك التصرف المعتاد كان تصرفه غير عاقل .

أما في حكم المفاهيم النفعية التي صارت تشكل العقول الآن فإن التصرف العاقل هو التصرف الذي يأتي على صاحبه بأكبر قدر من المنافع المادية الممكنة ولا يعرضه لأي من الخسائر سواء المادية منها أو غير مادية .

والحصيلة الناتجة من التصورات التي تنطلق من المعايير السابقة عن التصرف العاقل تجعله في الحقيقة أبعد ما يكون عن العقل .

فليس من المعقول أن يرتبط التصرف العاقل بالهدوء وعدم الإنفعال وعدم المغامرة وعدم التعرض للمخاطر إذا كان الموقف المتعلق به يقتضي ذلك إلا إذا ارتبط العقل عند هؤلاء بالبلادة و البرود والجبن والضعف والتخاذل والسلبية .

بل أنه قد يكون الإنفعال والعصبية دليلاً على العقل وليس العكس لأنه قد يكون تعبيراً عن التمرد على أوضاع قاسية طاغية ويكون مقابلتها بالرضا والهدوء هو درب من الجنون ذاته . ولكن ماذا تفعل إذا كانت المفاهيم الشائعة عندنا قد جعلت العقل مرتبطًا بالهدوء .

وليس من المعقول أيضًا أن يرتبط التصرف العاقل بالتصرف المعتاد للشخص العادي إلا إذا إرتبط مفهوم العقل لدى هؤلاء بمحدودية الذكاء وفقدان القدرة على الإبداع وحمل النفس على الإنسياق وراء القطيع أينما صار به مالكوه .

وليس من المعقول أيضًا أن يرتبط التصرف العاقل بتحقيق أكبر قدر من المكاسب المادية وعدم تعريض النفس للتضحية بشئ من الأشياء إلا إذا ارتبط مفهوم العقل لدى هؤلاء بالإنتهازية والأنانية والإلحاد والكفر بالغيبيات والحياة الآخرى والثواب والعقاب .

أي أننا إذا انسقنا وراء المفاهيم الشائعة عن الإنسان العاقل والتصرف العاقل لوجدنا أن العاقلين في مجتمعاتنا هم أكثر الناس سلبية أو نمطية أو انتهازية .

ومن الطبيعي أن تكون هذه المفاهيم هي الأداة التي يتم بها تشكيل العقول النامية للأجيال الصاعدة لأن هذه التركيبة المشوهه بما تحمله من

جهل وتخلف ورجعية تكون القدوة التي يتمثلونها في حياتهم أو يدعون إلى تمثلها .

ولنا أن نتسائل بعد ذلك عما يمكن أن ينتظره مجتمعنا من تقدم أو تحرر من أغلال التبعية التي تستعبدنا إذا كان العقلاء عندنا هم الذين تتصنع عقولهم بمثل هذا التشكيل المشوه ؟

وكيف من الممكن إستنهاض المسلمين إذا كانت تتحكم في سلوكهم أمثال تلك المعايير ؟!

والمنظور الإسلامي للسلوك العاقل الرشيد يرتبط بأقتضاء الصراط المستقيم وعدم الإنحراف أو الشذوذ عنه .

ومناط المسؤلية الإنسانية (الأمانة أي حرية الإرادة) في الإسلام هي التي يتمحور عليها وجود الإنسان وبمدى ارتباط العمل الناتج عن هذه المسئولية (الفعل أو اللا فعل) باقتضاء الصراط المستقيم يمكن إطلاق وصف السلوك العاقل عليه .

أي أن السلوك العاقل في الإسلام لا يرتبط فقط بالإمتناع عن فعل شئ وإنما يرتبط أيضًا في الأساس بالشق الإيجابي وهو وجوب القيام بالفعل إذا اقتضى الأمر ذلك .

ولكن هكذا انقسم الوعي الإسلامي وارتكن الخامدون على الشق السلبي فقط وهو الإمتناع عن الفعل لكي يقتربوا بهذا المفهوم الساذج من واقعهم السلبي الذي ينطلقون منه في تقدير السلوك العاقل الرشيد.

وانطلاقًا مما سبق فإنه إذا كان العقل في بعض المواقف يقتضي الإمتناع عن فعل سلوك معين فإن العقل أيضًا في مواقف أخرى يقتضي إتخاذ السلوك الإيجابي بفعل ما يجب أن يفعله الإنسان . والحكاية ليس لها علاقة على الإطلاق بأي نوع من الهدوء أو الإنفعال والتوتر لأنه إذا كان حدوث الإنفعال في موقف لا يحتمله له دلالة لا عقلانية فإن إبداء الهدوء أيضًا في بعض المواقف التي تقتضي الإنفعال له دلالة لا عقلانية .

كما أن الحكاية ليس لها علاقة المخاطرة أو عدمها فمن قال أن عدم المخاطرة تصرف عاقل رشيد إن هذا لا يمكن أن يكون كذلك إلا عند الأمم المتخاذلة المستكينة المستعيدة المستذلة . لإن عظائم الأمور في التاريخ كله قامت على المخاطرة وليس على الحسابات الأكيدة المأمونة النتائج .

إنه إذا كان التغيير أو الإصلاح أو التحرر أو الخروج من توابيت الواقع المهين الذي يفرض على الإنسان يقتضي المخاطرة فعند ذلك لا تكون المخاطرة هي فقط التصرف العاقل الرشيد بل إن الإنتكاس والتخاذل عنها يكون تصرفًا لا عقلانيًا على الإطلاق .

أما إذا كانت المخاطرة هي الحل الوحيد لانطلاق الإنسان من أسر واقعه المرير فعند ذلك يكون عدم المخاطرة هو الجنون ذاته .

فالعقل في المخاطرة إذا كان الأمر يتطلب المخاطرة .

والعقل في إجتنابها إذا كان الأمر يتطلب إجتناب ذلك .

وكما أن المخاطرة في الأمور التي لا تقتضيها تهور ولا عقلانية .

فإن عدم المخاطرة في الأمور التي تقتضيها تخاذل ولا عقلانية .

ولا شئ في هذا الوجود لا يتعلق بالخسائر .

إن أمر الدنيا كله يقوم على الموازنة بين المكاسب والخسائر .

أما التصور الساذج بأن العقلانية هي البعد الدائم عن الخسائر المحتملة بالبعد عن المواقف الإيجابية فهو مجرد وهم من الأوهام .

فقد لا تفعل شيئًا في موقف من المواقف نتيجة الخوف من الخسائر ويكون واقع الحال إنك تخسر أكثر كثيراً من عدم فعلك ذلك الشئ ولكن السلبية التي تحكم تصرفاتنا تشحذ نفوسنا عادة بتضخيم الخسائر المنتظرة من تصرفاتنا وتخدرنا عن الوعي بالخسائر الجسيمة التي نعاني منها والتي سوف تتضخم أكثر إذا لم نتخذ السلوك الإيجابي الذي يقتضيه موقف ما من المواقف .

فكونك تخسر من فعل شئ فإن ذلك لا يجب أن يدعوك إلى عدم فعله حتى ولو كانت الخسارة كبيرة مادامت الخسائر الناجمة عن عدم فعلك إياه أكبر كثيراً .

ولذلك فهنا تبرز أهمية الوعي . الوعي بمفهومه الشامل والقائم على التصور الإيماني المرتكن على الآخرة . الذي يتسع للحقائق الدينية الموجهة للسلوك والحقائق الواقعية التي يراد أن يتخذ هذا السلوك إزائها .

الوعي المتحرر من الخرافات والتصورات الموهومة والمفاهيم الدينية الزائفة ومعايير القيم السلبية والموروثة والعقد الباطلة للتقاليد المشاعة وضلالات المفاهيم السائدة .

لأن الإنسان الذي يقدم على إتخاذ موقف مصيري له دوره الحاسم في توجيه حياته يقتضي المخاطرة فإن ذلك يتطلب منه الوعي الكافي الذي يزن به المكاسب والخسائر من هذا الموقف فكيف من الممكن أن يمتلك الإنسان هذا الوعي إذا كان مكبلاً بكل المفاهيم الباطلة .

كيف من الممكن أن يوازن بين المكاسب والخسائر إذا كانت المعايير التي يحتكم إليها في ذلك هي معايير باطلة ما أنزل الله بها من سلطان .

كيف من الممكن أن نوازن بين المكاسب والخسائر إذا كانت المعايير التي نحتكم إليها تجعل المكاسب خسائر والخسائر مكاسب ؟!

كيف من الممكن أن نوازن بين ذلك إذا كانت المعايير التي نحتكم إليها تشحذ نفوسنا في تضخيم الخسائر المنتظرة من إتخاذ السلوك وتخديرنا بالتهوين من الخسائر التي نعاني منها بالفعل والتي من الطبيعي أن تزداد تفاقمًا إذا لم نتخذ السلوك المنتظر ؟! .

لابد من إمتلاك الوعي الإيماني الذي يفرق بين الخسائر الموقوتة والخسائر الأبدية والذي لا يعتمد فقط على موازين الدنيا فحساب المكاسب والخسائر من منظور الدنيا .. يختلف تمامًا عن حسابه من منظور الدنيا والآخرة .. يختلف عن حسابه من منظور تقديم الآخرة على الدنيا .

أيها الإنسان الذي يحترق عمره في توابيت العرف والتقاليد والجهل والخرافة والجبن والإنكسار والسلبية .

أما آن لك أن تنقذ نفسك وتحطم تابوتك ؟؟؟...

أما زلت تتردد ما هو القرار الصحيح ؟

سل نفسك أولاً :

هل أنت تحررت من المفاهيم البليدة من الأعراف والتقاليد التي يسجنك الناس فيها .

هل أنت تمتلك الوعي الإيماني الصادق الذي يجعل الدنيا منطلقًا للحياة الخالدة في الآخرة ؟

هل أنت تمتلك التقدير الدقيق للمكاسب والخسائر والموازنة بينها من منظور تقديم الآخرة على الدنيا ؟

هل أنت تمتلك الشجاعة اللازمة لاتخاذ قرارك وتحملك نتائجه أيًا كانت هذه النتائج ؟

سل نفسك هذه الأسئلة أولاً ثم :

اتخذ قرارك .

* * *

الإيجـــابية
و
السـلبية

الإيجابية والسلبية

في الحقيقة فإنني قد استهدفت عند كتابتي لهذا الكتاب أن يتدفق تيار الإيجابية في كل صفحاته إلا أنني قد رأيت أن الأمر يقتضي التركيز في دفع هذا التيار في فصل خاص به تبيانًا للفكرة وإبرازاً لها .

ولهذا أقول أن العلاقة بين الإيجابية والإسلام علاقة عضوية لا يمكن لكل ذي فكر الزهول عنها فتيار الإيجابية يتدفق في كل عروق الإسلام وفي كل نص من نصوصه وفي كل حدثٍ من أحداثه في تاريخه الأمثل وسيرته العظمى .

فرسالة الإسلام تتمحور أساسًا حول العمل .. حول الحركة .. حول الفعل . ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ .

ومعيار الإيمان في الإسلام يتحدد أساسًا على مدى قدرة الإنسان على مواجهة الخطأ (المنكر) « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

ولقد هاجم الإسلام بعنف السلبية المتمثلة في السكوت على الحق كما جاء في الحديث الشريف : « الساكت على الحق شيطان أخرس » .

وكما جاء في قوله ﷺ : « والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم» .

وكما جاء أيضًا فى الحديث النبوي فيما معناه : « لا يقفن أحدكم بموقف يضرب فيه رجل فإن اللعنة تقع على الجميع » .

وجعل الإسلام مجاهدة المنكر ذروة سنام العمل الصالح كما جاء فى الحديث « وذروة سنامه الجهاد »

وجعل كلمة الحق عند السلطان الجائر قمة الجهاد : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

بل أن مجرد الصمت والنظر نفسهما يتحولان في الإسلام إلى إيجابية متدفقة كما جاء في حديث الرسول ﷺ : « أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها ... » .

حيث جاء من بين هذه الوصايا التسع : « أن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبراً » .

فالصمت في الإسلام ليس وقتًا يهدر عبثًا وإنما هو طاقة فكرية ترتقي بالإنسان إلى الله وقد تؤتي ثمارها قوة دافعة تدفع هذا العالم أجمع خطوة إيمانية ثائرة إلى تعاليم الله .

والنظر في الإسلام ليس وسيلة لتلهية النفس بالمشاهدات الجميلة وليس منفذاً لإيقاظ شهواتها .

إنما النظر وسيلة الإنسان لاستقراء أحداث العالم واستقراء آيات الله في خلقه وما أبدعه في الوجود من صنائع، والتماس العبر من كل ذلك .

أما الذين يهدرون أعمارهم عبثًا عاكفين على رقعة شطرنج أو كوتشينة أو طاولة فمن غير المعقول أن يكون المنطق الإيماني قد تعمق داخل نفوسهم .

وأي مطلع على سيرة المسلمين الأوائل يشاهد حركة دؤوبة من التغيير والمواجهة لكل التحديات القائمة ، وانطلاقًا دائمًا نحو اقتحام الأهداف التي لم تكن تقف في الأغلب الأعم عند حدود العقل والواقع وتوازنات القوى ومختلف المفاهيم التي يستند عليها السلبيون في تبرير سلبيتهم .

والمستبصر في السير الشخصية للمسلمين الأوائل يستخلص منها هذا السلوك نفسه .

إنهم لا يقفون من الدنيا موقف المتفرج أو المحايد أو المستكين الذي يرتضي ما تقذفه له من فضلات سواء على المستوى المادي أو المعنوي إنما هم الذين كانوا يصنعون الدنيا ويجبرون العالم على متابعة ما يفعلون بانبهار .

تجلت هذه المواقف الإيجابية في جهادهم للكفار وفي فتوحاتهم ومعاركهم العسكرية غاية التجلي . كما تجلت أيضًا في حكمهم للشعوب وعدم توانيهم عن إقامة العدل بين أهلها مهما كانت الخسائر . ها هو عمر رضي الله عنه يصر على أن يقتص إعرابي لنفسه من أمير نصراني ـ كان قد أسلم ـ لطمه على وجهه حتى ولو أدى ذلك إلى أن يرتد هذا الأمير بعد ذلك ويلتحق هو وبعض قومه بأعداء المسلمين من الروم .

أما فيما يتعلق بحياتهم الشخصية فقد كان إذا أراد أحدهم شيئًا أباحه الله لم يقف ينتظر في استكانة واستسلام بل كان يتقدم نحو ما

يريده بثبات وقوة دون التقيد بأي معيار آخر ودون أن يكبل حركته حياء أو خوف .

عندما أراد عبد الرحمن بن العوف أن يقوم بالتجارة بعد حادثة الهجرة المباركة لم يقف ينتظر المساندة من أحد وإنما ذهب ليقتحم السوق اقتحامًا وليصبح بعد ذلك واحداً من أغنى المسلمين تقسم ثروته من المعادن النفيسة بالفئوس .

وإذا أرادت امرأة الإدلاء برأيها في شأن من شئون المسلمين أمام الرسول ﷺ أو أمام أحد من الخلفاء أبدت رأيها بحرية كاملة دون حرج .

وإذا أعجبت امرأة برجل تقدمت لخطبته ولم تجلس تضع يدها تحت خدها أملاً في أن ينتبه لوجودها يومًا وهو ما قد لا يحدث أبداً .

والغريب أن هذا العمل لو حدث في واقعنا المعاصر من أحد النساء في بعض مجتمعاتنا فإنه قد يعد ضربًا من الجنون .

وإذا أراد رجلاً منهم أن يزوج ابنته فإنه لا يجد غضاضة في أن يعرضها على من يرضاه لها بعلاً من المسلمين .

وامرأة تدفع أولادها الأربعة للإستشهاد في سبيل الله وتتقبل نبأ استشهادهم بكل صلابة بعد أن كانت قد ملأت الدنيا صخبًا على موت أخيها في الجاهلية .

وامرأة تصرخ في وجه ابنها الذي أصابه الوجل من التنكيل بجثته بعد موته : وهل يضر الشاة سلخها بعد ذبحها .

وعلماء يجوبون الأرض ارتحالاً للحصول على بضعة أحاديث تناثر من يحملونها في أطراف الأرض .

حركة ..

إقدام ..

مواجهة ..

اقتحام ..

إستبسال ..

استشهاد ..

سواء على مستوى التحرك الجماعي أو على مستوى السلوك الشخصي.

فالإيجابية كموقف عام هي أن تريد وأن تمضي بكل ثبات وقوة ووعي نحو تحقيق ما تريده والسلبية هي أن تنتظر أن يحدد لك الآخرون ما يجب أن تريده وأن تنتظر أيضًا اللحظة التي يمنحونك فيها ما أرادوا .

السلبية هي أن يحدد لك المجتمع دورك في الحياة . أو تترك الأمر الواقع يحدد لك ذلك .

والإيجابية هي أن تخضع أنت المجتمع لقبول ماتريد ، وأن تعمل على دفع هذا الأمر الواقع من مكانه لإرساء أمر واقع جديد يتفق مع أهدافك أنت .

السلبية هي أن تترك أنت الإمكانيات المتاحة لك تحدد لك ما يمكنك فعله .

والإيجابية هي أن تدفع أنت هذه الإمكانيات البسيطة وتوجهها بالطريقة التي تحاول من خلالها الحصول على ما تريد تحقيقه .

والبعض قد يعتقد أن الإيجابية قد تتمثل في قدرة الإنسان على إنتهاز الفرص التي قد تسنح له ولكن الإيجابية الحقيقية هي ألا ينتظر الإنسان هذه الفرص التي قد تسنح له أو لا تسنح وإنما عليه هو أن يصنع فرصته بنفسه .. عليه هو أن يدفع الظروف إلى الطريق الذي يؤدي إلى صنع فرصته .

الإيجابية هي أن تتقدم ابنة سيدنا شعيب عليه السلام نحو أبيها وتقول له قاصدة سيدنا موسى :

﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ .

والإيجابية أيضًا أن يتقدم سيدنا شعيب إلى سيدنا موسي قائلاً :

﴿ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ... ﴾ الآية .

الإيجابية هي أن تتقدم بكل ثبات وقوة ووعي نحو هدفك وتنتزعه انتزاعًا .

والسلبية هي أن تنتظر وتضع يدك تحت خدك تراقب إلى أين سيمضي هدفك هل سيأتي إليك أو لا يأتي .

هل هذا يعني أن الإيجابية إندفاع وتهور ؟

لا .. إن الإيجابية كفعل ينطلق من المنظور الإسلامي داخل إطارين هما : مدى شرعية الفعل ومدى توافقه مع التقدير الواعي للظروف (ويجمع بين الإطارين مفهوم الوعي الإيماني) .

فالإيجابية ليست إندفاع وإنما حساب دقيق للأمور ولكن حساب من منظور شجاع وليس من منظور جبان .

ولذلك فقيام ثورة التقدم الإيجابي يجب أن يخضع لهذا الحساب الدقيق ولكل أمر ظروفه الخاصة التي تقتضي درجة معينة من القوة لهذا التقدم الإيجابي . وعلى هذا فقد يكون الإندفاع نفسه موقف غاية في الإيجابية في ظروف تقتضي ذلك بل وقد يكون الترقب للأمور في حكمة في بعض الظروف الخاصة التي تقتضيه موقف غاية في الإيجابية أيضًا ، فالحاكم الأساسي لهذه الأمور ـ بعد إفتراض شرعيتها ـ هو مدى التقدير الواعي للظروف المحيطة لكل موقف من المواقف وأن يكون المنطلق لهذا التقديرهو المنطق الشجاع وليس المنطق الجبان .

والذي نعنيه بالمنطق الشجاع هو أن الإيجابية تتقبل إرتضاء الخسائر في سبيل الحصول على المكاسب الأكبر .

وليس هناك موقف في الوجود لا ينطوي على خسائر : هذا هراء .

ولكن منطق السلبيين يقصر أنظارهم على الخسائر فقط دون المكاسب أو يضخم لهم هذه الخسائر ويحقر لهم من قيمة المكاسب (كمن يفيل النملة وينمل الفيل) .

ومن أكثر الأشياء التي تردع الناس عن إتخاذ المواقف السليمة توقع الخسائر وعدم التقدير السليم لقيمتها بالنسبة للمكاسب المقابلة لها .

والمنطق الشجاع هو الذي يتجاوز ذلك الخوف من الخسائر المحتملة أما الوعي الإيجابي الذي أشرنا إليه فهو الذي يستطيع أن يوازن الموازنة الصحيحة بين تلك الخسائر والمكاسب المقابلة لها .

وبذلك يمكن تحقيق الإيجابية المنشودة .

مفهوم التسامح والسماح

السلبية هي أن تعجز عن إسترداداد ما سلبه الآخرون منك وتتنازل عن حقوقك وترتضي ظلم الآخرين لك وتحاول التستر على كل ذلك بادعاء التسامح وبذلك تختلط المفاهيم وتميّع الحقائق وتنتهك المحارم وتأكل الحقوق ويلتبس الحق بالباطل لأزمان طويلة لأن التغرير بتطبيق التسامح في غير موضعه يكون ذريعة لشياطين الإنس والجن لتحقيق مآربهم وبلوغ مطامعهم .

ويرجع ذلك إلى أنه عند اختلاط الحق بالباطل في قضية ما فإن دعوة الطرف الذي أصابه الظلم بترك الأمر جملة على سبيل التسامح تنطوي على تمييع الحقائق التي تدور حولها القضية المطروحة أمام الناس .

ويكون ذلك ذريعة للشياطين للحصول على مواقع جديدة للإضلال في عقول الناس وفرصة للأفاقين للإستناد على ذلك الباطل الذي لم يحسم الأمر في شأنه في تسويغ إضلالهم وآلباسهم الحق بالباطل .

كما أن التسامح عن الظلم أو حتى التغاضي عنه مادام لم يقر الظالم به ولم يتراجع عنه ينطوي في الحقيقة على إقرار للظالم على ظلمه وتمهيد الأرض لغيره من الظالمين ليعيثوا فيها فساداً ما داموا لا يواجهون ليس فقط بالعقاب ولكن ولا حتى بمجرد الإدانة . بل قد يكون ذلك مدعى لاغترار الظالم ذاته بنفسه وبأن ما فعله ليس ظلمًا وفي ذلك شر مستطار .

إن الدعوة إلى التسامح من قبل أن يقر الظالم بظلمه هي دعوة

ليست إلى استغفال المظلوم أو المجني عليه فقط وإنما هي دعوة إلى استغفال الناس أيضًا .

والإيجابية هي أن تملك القدرة على العقاب واسترداد الحقوق وأن تحصل بالفعل على إقرار الظالم بظلمه وأن تحق الحق وتزهق الباطل وهنا فقط يمكن الإطمئنان إلى أن رغبتك في التسامح هي رغبة حقيقية وليست ستاراً للعجز والسلبية اللذين قد تصاب بهما النفس أمام تطاول السنين على ظلم الظالمين وهنا فقط من الممكن أن تقول : سماح .

ومن الطبيعي أننا لا نهدف بذلك إلى شحن النفوس بالأحقاد وشحذها نحو الإنتقام والأخذ بالثأر ـ وإن يكن الثأر العادل بيد السلطان العادل أمر مشروع لاغضاضة فيه ـ ولكن مانقصده هنا هو تربية النفس على الإصرار والقوة والعزيمة والإيجابية وليس تطويعها للإنكسار والسلبية والتخاذل تحت ستار الدعوة إلى التسامح .

* * *

فلسفة التغيير فى الإسلام

لقد حاولت فى هذا الكتاب العمل على دفع القارىء إلى تبنى القيم الإيمانية والتسلح بها كقيم مواجهة لمختلف التحديات التى تواجه الإنسان فى الواقع المعاش .

ومن هنا فإن تبنى هذه القيم يعنى تبنى قيم تغيير حاسمة داخل الإنسان نفسه ويكون طبيعياً بالتالى أن يصطدم هذا التغيير فى الإنسان مع الواقع المعاش الذى يتناقض مع هذه القيم .

وإن كنا عملنا فى هذا الكتاب على بث الحماسة فى الكثير من صفحاته من أجل دفع قارئه إلى تبنى هذه القيم فلا يعنى ذلك أننا نوافق على أن يتولى القارىء تطبيق قيم التغيير هذه على المجتمع المحيط به بنفس الحماسة التى ندعوه بها إلى تبنيها .

إن أصحاب الدعوات أصحاب مسئوليات جسام والذين يحملون قضايا يؤمنون بها هم أكثر الأشخاص قدرة على الوعى بالواقع والتعامل مع قوانينه أو الإعتراك معها وتحمل المشاق فى سبيل ذلك حتى يتم ترويضها والتحكم فيها ومن ثم إمتلاك القدرة على تسيير المجتمع وتوجيهه إلى حيث الوجهة المنشودة من خلال التحكم فى هذه القوانين .

لذلك فالمرونة مع الأحداث هى أحدى مقومات شخصية المسلم وإحدى قواعد فلسفة التغيير فى الإسلام ولكن على الإنسان أن يعى أن هذه المرونة يسمح بها فى دائرة الأمور المؤقته ، فعند ذلك فقط تحسب القواعد الشرعية فى المصلحة فى الترجيح بين أقل الضررين : الضرر الناتج عن عدم التغيير أو تأجيله والضرر الناتج عن القيام بالتغيير بحزم

يقول الإمام ابن تيمية[1] :

« وجماع ذلك داخل فى القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت فإنه يجب ترجيح الراجح منها .

فإن كان المعروف أكثر أمر به وان استلزم ما هو دونه من المنكر ... وأن كان المنكر أغلب نهى عنه وان استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ... وان تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما فتارة يصلح الأمر وتارة يصلح النهى [أى تارة يتولى بالاصلاح جانب المعروف وتارة يتولى بالاصلاح جانب المنكر] وتارة لا يصلح أمراً ولا نهياً حيث يكون المعروف والمنكر متلازمين وذلك فى الأمور المعينه » (يقصد فى الأمور التى لا يمكن فيها تولى جانب دون جانب) .

ومن يريد التوسع فى الأمر فعليه أن يرجع لكتاب شيخ الإسلام العز بن عبد السلام (قواعد الأحكام فى مصالح الأنام) وهو من الكتب الفريدة فى التاريخ الإسلامى كله وقد تناول هذا الموضوع بإفاضة شديدة وتقسيمات مبدعة .

---

(١) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : ص ٤٠ ، ٤١ - مطبعة المدنى .

في نهاية المطاف

وفي نهاية المطاف أقول للقاريء :

لقد حاولت وضع بعض مناورات الضوء فى موضوع لا ينتهى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ألا وهو أثر العقيدة الإسلامية على تصورات المسلم وسلوكه فى الواقع المعاشى والعمل على وضع منهج إسلامى لبناء الشخصية القوية من القيم الإيمانية لهذه العقيدة فأرجو من الله أن يكون قد حالفنا التوفيق وأن يهدينا سبل الرشاد فى كل جهودنا من أجل خدمة الإسلام والمسلمين .

أهم المراجع : مرتبة بحسب أهميتها للكتاب

أولاً: كتب الأصول

* مصحف الرشيد تفسير وبيان ومعجم للألفاظ (د / الحمص - دار الرشيد بدمشق)

* مختصر تفسير الإمام إبن كثير : (للشيخ / الصابونى)

* تفسير البيضاوى : (الإمام / البيضاوى - دار الجيل)

* تفسير الظلال : (اللأستاذ / سيد قطب - دار الشروق)

* مختصر تفسير الطبرى : (دار الشروق)

* تفسير الحلالين : (للإمامين / جلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى)

* تفسير (الشييخ / عبد الجليل عيسى)

* رياض الصالحين : (الإمام / النووى)

* معارج القبول : (الشيخ / حافظ بن أحمد حكمى)

* متن العقيد الطحاوية : (الإمام / الطحاوى)

* شرح العقيدة الطحاوية : (الإمام / العز الحنقى)

* شرح العقيدة الطحاوية : (الشيخ / ناصر الدين الألبانى)

* التوحيد الذى هو حق الله على العبيد : (الإمام / محمد بن عبد الوهاب)

* فتح المجيد شرح رسالة التوحيد : (الشيخ / عبد الله آل الشيخ)

* العبودية : (الإمام إبن تيمية)

* الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : (الإمام إبن تيمية)

* العقيدة الواسطية : (الإمام / إبن تيمية)

* الإيمان : (الإمام / إبن تيمية)

* الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان :(الإمام/ إبن تيمية)

* العقائد الإسلامية : (الشيخ / سيد سابق)

* الإيمان (حقيقة واركانه ونواقضة) : (د/ محمد نعيم ياسين)

* مختصر منهاج القاصدين : (الإمام / أبن قدامة المقدسى)

* طوق الحمامة : (الإمام / أبن حزم)

* الروح : (الإمام أبن القيم)

* نزهة المشتاقين : (الإمام أبن القيم)

* الداء والدواء : (الإمام أبن القيم)

* الطب النبوى : (الإمام أبن القيم)

: (شيخ الإسلام / العز بن عبد السلام)

ثانيـا : كتب علم النفس والفكر الغربى

* المرجع فى علم النفس : (د/ سعد جلال - دار الفكر العربى)

* الشخصية : (ريتشاردس - لازاروس)

* ترجمة : (د / سيد محمد غنيم)

(إشراف د / محمد عثمان نجاتى - دار الشروق)

* العلم فى منظور الجديد : (روبرت م . أغروس ، وجورج ن . ستانسير - ترجمة د / كمال خلايلى - سلسلة عالم المعرفة)

* ميادين علم النفس : (دار المعارف)

* علم النفس الإكلينيكى : (دار المعارف)

* الأنا والهو : (سيجمو ند فرويد - دار الشروق)

* معالم التحليل النفسى : (سيجمو ند فرويد - دار الشروق)

* الحب والموت والحضارة : سيجموند فرويد - ترجمة د / عبد المنعم الحُصنى - مكتبة مدبولى)

* الصحة النفسية : (دار هاجر)

* علم النفس العام : (د / يوسف مراد - دار المعارف)

* الذكاء ومقاييسه : (ريكس نايت - ترجمة / عطية محمود هنا - دار المعارف)

* علم النفس والأدب : (د / سامى الدروبى - دار المعارف)

* نحو علم نفس إسلامى : (د / حسن محمد الشرقاوى)

* علم النفس الجنس : (أوسفيلد شفارتس)

* أسرار النوم : (الكسندر بوربلى - ترجمة د / أحمد عبد العزيز سلامة - سلسلة عالم المعرفة)

* الفلسفة الأوربية المعاصرة : أ.م. بولشنيفسكى (سلسلة عالم المعرفة)

* المظهر والجوهر : إريك فروم (سلسلة عالم المعرفة)

ثالثا: كتب الفكر الإسلامى

* الاسلام النفعى البراجماتى : (محمد إبراهيم مبروك - دار التوزيع والنشر الإسلامية)

* الإنقلاب الإسلامى : الإمام / أبو الأعلى المودودى)

* الحكومة الإسلامية : (الإمام / أبو الأعلى المودودى)

* المصطلحات الأربعة : (الإمام / أبو الأعلى المودودى)

* نظرية الإسلام السياسية : (الإمام / أبو الأعلى المودودى)

* حكمة الدين : (العلامة / وحيد الدين خان)

* تجديد علوم الدين : (العلامة / وحيد الدين خان)

* الإنسان القرآنى : (العلامة / وحيد الدين خان)

* قضية البعث الإسلامى : (العلامة / وحيد الدين خان)

* مستقبلنا : (العلامة / وحيد الدين خان)

* مجموعة رسائل الإمام :(الإمام / حسن البنا)

* خصائص التصور الإسلامى : (الأستاذ / سيد قطب)

* العدالة الإجتماعية فى الإسلام : (الأستاذ / سيد قطب)

* معالم فى الطريق : (الأستاذ / سيد قطب)

* عقيدة المسلم : (الشيخ / الغزالى)

* خلق المسلم : (الشيخ / الغزالى)

* كيف نفهم الإسلام : (الشيخ / الغزالى)

* المرأة بين التقاليد الراكدة والمفاهيم الوافدة :(الشيخ / الغزالى)

* الربانية والمادية : الأستاذ / مصطفى مشهور)

* الإسلام دين وحضارة : (الأستاذ / عادل حسين)

* الإسلام والعقلانية : (الأستاذ / جمال البنا)

* حوار مع صديقى الملحد : (الدكتور / مصطفى محمود)

الفهـــرس

رقم الإيداع : ١٦٣٨ / ٩٣
I.S.B.N : 977 - 00 - 4536 - 5

عربية للطباعة والنشر

١٠،٧ شارع السلام ــ أرض اللواء المهندسين
ت: ٣٠٣٦٠٩٨



THABIT PUBLISHING COMPANY

دار ثابت

٩٢أ شارع محمد فريد ص . ب . ٦ باب اللوق تليفون : ٣٩٢٩٥٧٤ القاهرة

92 (A) Muhammad Farid St. Cairo. P.O. Box 6 Bab el-Luk. Cairo Tel. 3929574

كتب للمؤلف

★★ أولا : كتب صدرت :

* الإسلام النفعى (البراجماتى) .
* علمانيون أم ملحدون (حقيقة العلمانية والصراع بين الإسلاميين والعلمانيين).
* تزييف الإسلام (الجزء الأول).
* كن قويا بالإيمان (منهج إسلامى فى بناء الشخصية القوية).
* الصراع حول المادة وجوهر الحياة .
* الإنسان البرواز .

★★ ثانيا : كتب تحت الإعداد للنشر :

* تزييف الإسلام (الجزء الثانى والثالث) .
* مقدمة فى تجديد الفكر الإسلامى .
* مشكلة الشباب .
* التحدى الإسلامى لأمريكا .
* إنفجار (الخروج من التابوت) (ديوان شعر)
* مِنْ أجل مَنْ أهدرت دمَكْ (ديوان شعر)
* الحقائق القديمة تصعد من جديد (ديوان شعر)
* الصراخ ضحكاً والجنون صمتاً (ديوان شعر)
* خمسة دواوين من الشعر والنزيف لم يقف (ديوان شعر)
  كليوباترا (ألام أنطونيو البشعة) (ديوان شعر من قصيدة واحدة)
* الرحيل والذبيح (ديوان شعر من قصيدة واحدة)

هـذا الكتـاب

من الأمور التى يتناولها هذا الكتاب :

- النفس الإنسانية بين الإسلام وعلم النفس الغربى .
- أجهزة الإنسان الوظيفية وعلاقتها بالسلوك الإنسانى .
- ما هى النفس الإنسانية وما هى محدداتها وما هى ديناميتها .
- نقد النظرية الفرويدية فى النفس الإنسانية .
- الرغبة فى الجنس .
- الرغبة فى الاستعلاء .
- الرغبة فى السمو الدينى .
- الرغبة فى جمع المال .
- الحب كرغبة . . وهل هو يعنى الجنس .
- هل الروح هى النفس الإنسانية .
- ما هى أسرار الروح .
- ما هى الشخصية القوية .
- حرية الإرادة هى أمانة الله للإنسان.
- العلاقة بين حرية الإرادة والقضاء والقدر .
- العلاقة بين الشخص المسيطر والشخص المسيطر عليه .
- ما الذى يمثل شخصية الإنسان ؟ هل هو عمل الإنسان أم البرستيج
- موقف الإسلام من الأعراف والتقاليد.
- المرأة هى العدو الأول للمرأة .
- الإستسلام للأحزان إستسلام للدمار.
- الواقعية الإستسلامية والواقعية الإصلاحية .
- مفهوم النجاح بين الإ والإنسان النفعى .
- الإيجابية والسلبية ومفهو
- العقل والجنون والشجا
- فلسفة التغيير فى الإسلا



دار ثابت
THABIT PUBLISHING COMPANY
٩٢أ شارع محمد فريد ص . ب . ٦ باب اللوق تليفون : ٣٩٢٩٥٧٤ القاهرة
92 (A) Muhammad Farid St. Cairo. P.O. Box 6 Bab el-Luk. Cairo Tel. 3929574